49

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

دورية تصدر كل شهرين من إسطنبول www.hiramagazine.com السنة العاشرة / (يوليو - أغسطس) ٢٠١٥

أحلام

لك أحلام وليَ أحلام..
بالقلم أحلامَك ترسم،
وأنا بدمع قلبي أرسم أحلامي،
بها أحيا، ومن أجلها أتألم،
ولكن أنّى للخَليّ أن يدرك
معاناة الشجيّ؟

* * *

٢ انتصار الروح
فتح الله كولن

٥ هل يحزن الحيوان؟
خلف أحمد محمود أبو زيد

٢١ الذكاء العاطفي وبناء شخصية الطفل / **د. بركات محمد مراد**

الانتصار المنشود

في افتتاحية "حراء" لهذا العدد، يشيد "فتح الله كولن" بعظمة الانتصارات الروحية التي توّجت انتصارات أولئك العظماء الفاتحين من رجال الحروب والمعارك، ويشير إلى أن عظمة الإنسان العظيم لا تتحقق إلا بانتصاره للروح، والوقوف معها بالضد من نوازع اللحم والدم، وبالضد من انتفاخ الـ"أنا"، وتورمها إلى حد الشعور بأن العالم يوشك أن يركع تحت قدمي صاحبها، وأنه كاد يكون محورًا للكون يدور عليه ويدور من أجله، وأن كل شيء -ما عداه- ينبغي أن يخطب ودَّه، ويسبح بحمده، ويطيع أمره، ويجري حيث يجري هواه ورغبته.

وجنون العظمة هذا، كثيرًا ما كان سببًا في سقوط الرجال وانكسار الدول والشعوب، وتحطم الإمبراطوريات وتفككها وانهيار سطوتها. فالأحداث العظيمة في التاريخ، لا تحركها إلا القوى الروحية العظيمة التي يمتلكها رجال الفعل التاريخي، كما يفيدنا التاريخ نفسه، وتعلمنا أحداثه ووقائعه.

وفي مقال "القابضون على الجمر"، يخوض "عبد المجيد بوشبكة" فيما تموج فيه ساحاتنا الفكرية والثقافية والدعوية من اختلاط أوراق، وتزاحم منافع ومصالح حتى غدا الصادق كاذبًا، والكاذب صادقًا، والأمين خائنًا، والخائن أمينًا.. ولكن ستبقى الحقيقة والقابضون عليها هي المنتصرة في آخر المطاف.

أما مقال "جانب الطور الأيمن" لـ"عبد الإله بن مصباح" ففيه التفاتات قيمة لما جاء في القرآن الكريم من إشارات كونية هي رؤوس أقلام مختصرة ومركزة حول بعض الحقائق العلمية، وأشياء مدهشة لا يمكن تجاهلها كما يقول "فتح الله كولن". فهذا المقال يتحدث عما جاءت به الكشوف العلمية من أن الجبال لها حركة كما قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(النمل:٨٨).

و"أديب الدباغ" في مقاله "من أسرار الروح"، يتحدث عن عظمة الروح التي هي من أمر الله قائلاً: "وللروح أنفاس يفوح منها عبق حياة الأكوان وروائح الجنان.. وليس للروح حدود تقف عندها ولا سدود تصدها عن اختراق الحجب"، إلى أن يقول: "وإذا ما فاضت الروح وألقت بعلومها تحت أعيننا، فإننا نستطيع عند ذاك أن نفهم من أين تأتينا القوى الحيوية التي نصارع بها الزمن ونتغلب على ويله الوبيل".

ويكتب "سليمان الدقور" عن منهجية التعامل مع الشائعات والاتهامات فيقول: "إن المسلم الصادق، المؤمن بربه، الواثق بقدره، يتجاوز مثل هذه المواقف برصيد المحبة والأخوة... ويؤكد الأستاذ "فتح الله كولن" موقفه في الخدمة مع إخوانه -على الرغم من كل الإساءات والاتهامات- على جملة من مفاهيم الإيمان، ومنها ضرورة التماسك والثبات على ذات القيم، لأنها قيم قرآنية ثابتة".

و"محمد إقبال عروي" يتحدث عن الجمالية السليمانية فيقول: "إن مضامين القرآن الكريم وتوجهاته، لفتت نظر هذا الإنسان إلى الجمال الذي يبدأ من أعماق داخله، ويمتد إلى مختلف العناصر الطبيعية التي تحيط به في عالم النبات والجماد والحيوان، وفي محيط الأرض وملكوت السماوات.

هذا إلى جانب مقالات قيمة أخرى تفتح أمام القارئ آفاقًا فكرية واسعة.

بسم الله

المحتويات

انتصار الروح / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
فرسان النور / حراء (ألوان وظلال)	٤
هل يحزن الحيوان؟ / خلف أحمد محمود أبو زيد (علوم)	٥
الكرامة الإنسانية وأثرها في البناء الحضاري / د. ربيع خليفة بيومي (قضايا فكرية)	٨
البشرية المعذَّبة / حراء (ألوان وظلال)	١٢
السلوك الإيجابي / د. عبد الدائم الكحيل (تربية)	١٣
القابضون على الجمر / د. عبد المجيد بوشبكة (قضايا فكرية)	١٧
الذكاء العاطفي وبناء شخصية الطفل / د. بركات محمد مراد (تربية)	٢١
منظومة القيم في القرآن والبناء التكاملي لوظائف الأسرة / د. سعيد شبار (قضايا فكرية)	٢٥
الإيمان طريق السعادة / د. ربيعة بنويس (قضايا فكرية)	٢٩
هل نحن في حاجة إلى إعادة تعريف الجامعة؟ / د. محمد باباعمي (قضايا فكرية)	٣٣
يا حسرةً على العباد! / حراء (ألوان وظلال)	٣٥
هو الإسلام / د. عبد الرحمن العشماوي (شعر)	٣٦
أسس الكيمياء الحديثة في الحضارة الإسلامية / د. خالد حربي (تاريخ وحضارة)	٣٨
جانب الطور الأيمن / د. عبد الإله بن مصباح (علوم)	٤٢
من أسرار الروح / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	٤٦
فوضى أم نظام مُحكم؟ / د. ناصر أحمد سنه (علوم)	٤٨
أصالة الحوار ومحوريته في الإسلام / د. صهيب مصباح (ثقافة وفن)	٥٢
الإنسان المكرَّم / حراء (ألوان وظلال)	٥٤
معايير منهجية في التعامل مع الشائعات والاتهامات / د. سليمان الدقور (قضايا فكرية)	٥٥
برعوم البراءة / حراء (ألوان وظلال)	٥٨
الجمالية السليمانية أو إعمال الجمال أولى من إهماله / د. محمد إقبال عروي (قضايا فكرية)	٥٩
روح الأندلس / د. سعاد الناصر (أدب)	٦٣

انتصار الروح

١ الإنسان يمثل في هذه الدنيا قوتين مختلفتين عن بعضهما؛ هما الروح والجسد. هاتان القوتان قد تجتمعان في بعض الأحيان وتشكّلان كيانًا موحَّدًا متكاملاً، لكنهما على تناقض فيما بينهما على الأغلب؛ فإذا انتصرت إحداهما فذلك يؤدي إلى هزيمة الأخرى. إن الروح في جسم استعرت فيه الرغبات الجسدية، وبلغت من الغليان مبلغًا بعيدًا، ضعيفة هزيلة وأسيرة لا تريد عتقًا من براثن الرغبات البدنية؛ بينما لو ثارت على شهوات النفس ونوازعها، ونُصِّب القلب سيدًا على العقل، والروح حاكمةً على الجسد، فإن الروح تتخطى ألف متاهة ومتاهة بقفزة واحدة، وتبلغ أفق الخلود.

إن بلدًا انهار في ميدان الروح، لا فرق بينه وبين المقبرة حتى لو زُيّن كل ركن من أركانه بمئات من أقواس النصر وهياكل التنانين. إن عالمًا لم يرتفع بنيانُه على أنفاس انتصارات الروح؛ ألعوبة في يد القوة الطاغية والجبروت الغاشم... وإن ثقافة لم تنمُ ولم تزدهر في البيئة الفاضلة للروح؛ كساحرة شريرة قطّاعة للطريق أمام الأفق الإنساني... وإن الحشود البشرية التي تعيش في بلد هذا شأنه، أشقياء بؤساء عُمي لا يكادون يخرجون من أزمة حتى يقعوا في أزمة أخرى أشدّ بؤسًا وشقاء. ولكن هيهات للنفوس الأنانية التي لا تفكر إلا

في متعتها الذاتية، ولم تستطع أن تربط حياتَها بقيمة إسعاد الآخرين قطّ، أن تدرك هذا المصير الكالح الأليم.

آه... لو نجح هؤلاء البؤساء -ولو مرة واحدة- أن يَفنوا أنانية ونفسًا، فيعرفوا سر التحليق نحو الخلود في أفق الروح.

إن الأبطال الذين ربطوا قلوبهم بأعظم الغايات علوًّا وعمروها بحب الإنسانية، أولئك قد ضبطوا ميزان طاقة القلب، وشحذوا عواطفهم للتحليق نحو أسمى الآفاق، وبلغوا الخلود في قرارة ذواتهم. هؤلاء السعداء الذين استطاعوا أن يتخلصوا من العيش الحيواني بقفزة واحدة وتجاوزوا شهواتهم الجسدية، قد مكّنوا أرواحهم من التحليق، وقلوبهم من الرفرفة والتسامي، وحققوا انتصارات متعاقبة للروح في أبعادها الإنسانية رغم أنف النفس ونوازعها.

إن القويّ والمنتصر الحق، من قَوي على نفسه وانتصر عليها، أما الأرواح الشقية التي لم تتخلص من أسر النفس ورغباتها القاتلة، فهي مهزومة حتى لو فتحت العوالم كافة. فلو دانت لمثل هؤلاء الأرضُ كلها، من أولها إلى آخرها، لا يمكن أن يُسمَّى ذلك الاحتلال فتحًا؛ بل إن بقاءهم في الديار التي احتلوها لمدة طويلة، مستحيل.

عندما لطم "نابليون" العلمَ والفضيلة في شخص الفيلسوف "فولني" مأخوذًا بجنون العظمة، ظنًّا منه أنه بات ملك العالم الأوحد، ليت شعري هل أدرك أن هذه الهزيمة في الروح، هي أشد مرارة وأعظم خزيًا له من الهزيمة التي مُني بها في "واترلو"؟[1]

وإن "مرزيفونلي مصطفى باشا"[2] قد تعرض للهزيمة في نفسه أولاً قبل أن يتعرض لها جيشه في "فيينا" بكثير. تلك الهزيمة الأولى في تاريخنا -التي بدأت في روح القائد ثم شاعت في الآفاق- لم تُطِح برأسه فحسب، بل علّمت أكثر الجيوش عظمة وشجاعة في العالم يومئذ ما لم يكن يعلمه حتى ذلك اليوم... علّمته الفرار. وكذلك قلب الأسد "يلديريم بيازيد خان"، لم ينهزم في "شوبوك"[3] أصلاً، بل انهزم حين استهان بغريمه وحسب نفسه سلطان العالم الأوحد... وآخرون وآخرون.

بالمقابل، لم يكن "طارق"[4] منتصرًا حقيقيًّا حينما

إن بلـدًا انهار في ميدان الـروح، لا فرق بينه وبين المقـبرة حتى لـو زُيّـن كل ركن مـن أركانه بمئات مـن أقواس النصر. إن عالمًـا لم يرتفع بنيانُه على أنفـاس انتصـارات الـروح، ألعوبة في يـد القوة الطاغية والجبروت الغاشم.

حراء

انطلق بحفنة من أبطاله البواسل متجاوزًا برج هرقل، ثم متغلبًا على تسعين ألف جندي من جنود الإسبان. بل عندما وقف في "طليطلة" إزاء كنوز المِلك وخزائنه هاتفًا: "احذر يا طارق، لقد كنت بالأمس عبدًا، فأصبحت اليوم قائد مظفرًا، وغدًا ستكون تحت التراب". أجل، في تلك اللحظة، لما زأر في نفسه بهذا الزئير، وحلق بروحه هذا التحليق، كان منتصرًا حقًّا.

كذلك السلطان "يافوز سليم"، ذاك الذي كان يرى الأرض ضيقة على مِلكين، لم يكن فاتحًا مظفرًا حقًّا عندما كان يهز أرجاء الأرض بجيشه الفاتح المعظم، فينزع تيجان ملوك من على رؤوسها ليضعها على أخرى، بل كان فاتحًا حقًّا؛ عندما عاد من نصر "الريدانية"[5] يحمل وسام سلطان العالم الإسلامي الأوحد، حتى إذا وصل أبواب إسطنبول، وعلم أن الرعية قد استعدت لاستقباله مصفّقة مهللة مكبّرة، أبى أن يدخلها حتى لا يرى هذا الاستقبال الفخم، وانتظر حتى جاء الليل ونام الناس، ثم دخل العاصمة بصمت وهدوء. بل كان قائدًا مظفرًا حقًّا؛ حين تلوثت -أستغفر الله، بل تعطّرت- عباءته بوحل تناثر من حوافر دابة شيخه، فأوصى بأن تكون تلك العباءة غطاء لتابوته بعد وفاته.

وكذلك القائد الروماني "كاتون"، لم يكن منتصرًا حقيقيًّا عندما هزم جيوش قرطاج، بل كان منتصرًا حقًّا وفاتحًا تربع على عرش القلوب، حين قال بعد أن ردّ ملابس القيادة وأوسمتها وجيشُه يدخل العاصمة وسط هتافات النصر المدوية: "لقد حاربت لكي أخدم أمتي، وقد قمت بواجبي، والآن أعود إلى قريتي".

إن الجذور مهمة للأشجار في نموّها وامتدادها، وكذلك التضحية للإنسان، تضحيته المادية والمعنوية. فالأشجار تنمو وتمتد بقدر قوة جذورها، كذلك الإنسان

hiramagazine.com

ينمو ويمتد ويسمو حتى تلامس هامتُه أطراف السحاب بقدر تجرده من مصلحته الشخصية، وانسلاخه من حب الذات والأنانية، وإيقافه لنفسه من أجل الآخرين.

"لم أذق لذة من لذائذ الدنيا طوال حياتي التي تجاوزت الثمانين، لقد مضى عمري كله في ساحات الحروب وسجون الأسر وفي ميادين شتى من الآلام والمعاناة، لم يبق أذى إلا ذقته، ولا مرارة إلا تجرعتها. لا حبّ للجنة في قلبي ولا خوف من النار. لو أرى إيمان أمتي قد بلغ بر الأمان، فإنني أرضى أن أحرق في لهيب النيران. نعم، جسدي سيحترق ربما، لكن قلبي سيكون روضة من رياض الجنان" (بديع الزمان سعيد النورسي). ما أعظمه من نشيد قدسي يبشر بانتصارات الروح. ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية، العدد: ٥٤ (يوليو ١٩٨٣). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الهوامش

(١) معركة واترلو: معركة فاصلة في ١٨ يونيو ١٨١٥ في قرية واترلو قرب بروكسل عاصمة بلجيكا. وهي آخر معارك نابليون بونابرت، حيث هزم فيها هزيمة نكراء. وتعتبر هزيمة واترلو، الفصل الختامي لإمبراطورية نابليون الذي عاد إلى باريس وتنازل عن العرش وتم نفيه إلى جزيرة سانت هيلينه. (المترجم)

(٢) وهو الصدر الأعظم العثماني الذي قاد الجيش العثماني في محاصرة فيينا الثانية عام ١٦٨٣، حيث انهزم الجيش العثماني هزيمة مريرة حكم بعدها على الصدر الأعظم بالإعدام. وجاءت الهزائم في العقود المقبلة متتابعة، وبدأت أراضي الدولة العثمانية تنحسر في أوربا شيئًا فشيئًا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤-١٩١٨. (المترجم)

(٣) معركة شوبوك أو معركة أنقرة كما اشتهرت في التاريخ العثماني، وقعت في عام ١٤٠٢ بين الدولة العثمانية بقيادة السلطان يلديريم بيازيد، والدولة التيمورية تحت قيادة تيمور لنك، وانهزم فيها الجيش العثماني، ووقع بيازيد أسيرًا في يد تيمور لنك، حيث توفي بعد ثمانية أشهر في الأسر. وعاشت الدولة العثمانية بعد تلك الهزيمة حالة من الفوضى والتراجع مدة طويلة، إلى أن جاء السلطان محمد الأول فأعاد بناء الدولة من جديد. (المترجم)

(٤) وهو القائد المسلم المشهور طارق بن زياد، الذي قاد الفتح الإسلامي للأندلس عام ٧١١ م. (المترجم)

(٥) معركة الريدانية كانت في عام ١٥١٧ بين الدولة العثمانية بقيادة السلطان سليم الأول (يافوز سليم) ودولة المماليك بمصر. (المترجم)

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

فرسان النور

وقْعُ حوافرك في سمعهم نَغَم،
وصهيلُك في آذانهم طرب،
على صهوتِك الفرسانُ تألقوا،
وعلى ظهرك أرواحَهم مَنحوا،
فبقاعَ العالَم فَتحوا،
والنورَ في غواشي الظلمات نشروا.

* * *

خلف أحمد محمود أبو زيد*

هل يحزن الحيوان؟

يعد الشعور بالحزن أمرًا عاديًّا بالنسبة إلى الإنسان، ويتضح ذلك من خلال تصرفاته وأفعاله، تعبيرًا عن حزنه. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل الحيوانات تعرف الحزن مثل الإنسان؟ وهل لديها هذه الملكة في التعبير عند فقد عزيز لديها؟ وقد راود هذا التساؤل أذهان الكثير من علماء الأحياء ودراسة السلوك، الذين توصلوا من خلال تتبعهم لسلوك بعض الحيوانات في المحن التي تواجهها؛ إلى أن الحيوانات تمتلك الشعور بالحزن نفسه الذي يعتري الإنسان عندما يفقد أحباءه، بل هناك من يموت حزنًا على أبنائه وأصحابه.

عمل العلماء على وضع تعريف محدد للحزن والكيفية التي تقاس بها هذه المشاعر، وكيف يمكن فصل مشاعر الحزن وتميزها عن سائر المشاعر الاجتماعية الأخرى... وبعد جهود ودراسات مستفيضة، وضع العلماء عددًا من الشروط إذا تحققت كان الحيوان في

حالة حزن، أهمها اختيار حيوانين أو أكثر قضيا معًا وقتًا يتعدى الأمور الحياتية، كالبحث عن الغذاء والتزاوج. ثانيًا متابعة سلوك الحيوان عندما ينفق أو يموت رفيقه؛ فالحيوان الباقي على قيد الحياة يتغير سلوكه، ربما بامتناعه وقتًا ما عن الأكل أو النوم، أو بتبنّي وضع جسماني مختلف عن المألوف له، أو تعبير الوجه عن الكآبة والاضطراب أو العجز عن النوم بشكل عام.

حزن الدلفين

الدلفين حيوان بحري ذكي، خفيف الحركة، ذو صوت مميز، يمكن فهم إشاراته بسهولة، فهو حيوان به طيبة ورقة ويتنفس الهواء. وعلاقة هذا الحيوان بالإنسان قديمة قدم وجود الإنسان على سطح الأرض، وتحكي القصص الرومانية القديمة، على لسان الشاعر "بلين"، قصة طفل ربطته صداقة بأحد الدلافين، كان يحمله على ظهره كل يوم إلى الجهة الأخرى من النهر حيث توجد مدرسته. وقد حدث أن أصيب الطفل بمرض أدى إلى وفاته، فحزن الدلفين كثيرًا على وفاة الطفل، ومات هو الآخر من شدة الحزن.

قام عالم الأحياء البحري الإسباني "خوان غونزالفو" عام ٢٠٠٧، على شواطئ مفراكيكوس في مدينة ميلان الإيطالية بدراسةٍ راقب فيها أنثى دلفين وهي تحمل صغيرها النافق... رصد محاولاتها في الابتعاد عن أعين المراقبين بالسباحة بعكس التيار، وكأنها تحاول بذلك أن تحرك صغيرها ولكن بلا فائدة. وترصد الدراسة مشهدًا آخر بسبب ارتفاع درجة الحرارة، حيث بدأت الجثة في التحلل بحلول المساء، وإذا بالأم تأخذ قطعًا من أنسجة طفلها وهي مستمرة في السباحة. وفي اليوم التالي -وفي تصرف أشبه بما يقوم به الإنسان عند فقدان الأحباب- تجمّع حول أنثى الدلفين ثلاثة من أصدقائها ولكن من دون الاقتراب منها، لتتصرف كما يحلو لها، حيث بدت فاقدة الشهية تمامًا. وإزاء هذا الموقف المؤثر، قرر العالم عدم المساس بجثة الصغير وتشريحه، إذ قال: "ما جعلني أبتعد عن ذلك هو الاحترام".

وإذا تتبعنا الحزن في عالم الحيوان، نجد أن حيوانات أخرى تعرف مشاعر الحزن وتعبر عنه ولكن بطريقتها الخاصة. من خلال متابعة سلوك هذه الحيوانات، نجد أن أمهات البابون والشمبانزي الإفريقي، لها طريقة خاصة في التعبير عن الحزن عند فقدان صغارها، حيث تحمل جثث صغارها أيامًا وأسابيع تعبيرًا عن حزنها العميق. بينما نجد الحصان يمتنع عن الطعام حزنًا على فقد صاحبه. أما عصافير الدوري والطيور التي لم تدجن، تصوم حال وقوعها في الأسر، وربما كان ذلك تعبيرًا عن الأسى والحزن عما لحق بها من أذى.

عزاء جماعي

ولا تقتصر حالات الحزن في عالم الحيوان على هذه الحالات الفردية، بل هناك دراسات علمية اهتمت برصد حالات من الحزن الجماعي لدى بعض فصائل الحيوانات، وبيّنت أن هذا الأمر ليس قاصرًا على الإنسان وحده. ومن حالات الحزن الجماعي لدى بعض فصائل الحيوانات، هذه الدراسة التي قام بها العالم "كلاس هامليون" في كينيا، حيث رصد تصرفات قطيع من الفيلة عند نفوق قائده؛ فرأى أن قائد قطيع آخر قام بدفع جثة الفيل الميت بأسنانه العاجية محاولاً إنهاضه، إلا أنه لم يفلح في ذلك، فحاول مرة أخرى، إلا أنها باءت بالفشل أيضًا. وبعد ذلك جاء قطيع الفيل الميت، وقام بتحريك الجثة يمنة ويسرة بواسطة أجسامه وأقدامه مرارًا، ولكن لم تتغير النتيجة. وقد خلص صاحب الدراسة (كلاس هاملتون) إلى أن الفيلة لا تحزن على أفراد قطيعها فحسب، بل تتألم وتهتم بالموتى من خارج قطيعها أيضًا.

وفي دراسة أخرى، رصدت ملامح الحزن الجماعي لدى قطيع من الزرافات؛ فكما هو معروف أن الزرافة، من الحيوانات الاجتماعية إلى حد كبير، حيث تقوم الأم بحراسة وليدها ومراقبته لأربعة أسابيع، وعندما تذهب إلى البحث عن الغذاء، فإنها تكلف إحدى الزرافات بحراسة وليدها. ومن الأمور التي رصدها العالم "مولر" عام ٢٠١٠ -وهو عالم بيولوجيا في كينيا- هو أن أنثى الزرافة في محمية سوبسمبو الكينية، وضعت مولودًا ذا أرجل مشوهة لا يستطيع المشي بها بالطريقة المعتادة، فكانت هذه الأم لا تبتعد عن صغيرها أكثر من ٢٠ مترًا، مع أن قطيع الزرافات -عادة- ينتشر لمسافات بعيدة للحصول على الغذاء، ولكن أم الصغير المعاق خالفت هذه القاعدة، وفضّلت البقاء بالقرب من وليدها مضحية بغذائها، ومعرّضة صحتها للتدهور.

ومن الملاحظات الغريبة التي رصدها الباحث، أنه شاهد ١٧ أنثى -ومعها أم المعاق- في حالة قلق وهي مجتمعة حول الوليد، واكتشف القطيع أن الوليد قد نفق، وأن هذا التجمع هو لتعزية الأم في مصابها. وبعد

ذلك زاد عدد المعزين حتى وصل إلى ٢٣ أنثى وأربعة صغار، وبدأ المعزون بملامسة جثة الصغير بأنوفهم، وحتى نهاية اليوم لمست ١٥ أنثى جسم الوليد النافق وكأنها تودعه الوداع الأخير. وبعد مرور يومين على نفوق الصغير، توافدت أعداد أخرى من الزرافات إلى مكان الجثة. وفي اليوم الثالث للعزاء ابتعدت الأم مسافة ٥٠ مترًا عن الجثة، إلى أن التهمت الضباع الجثة.

وفي عام ٢٠٠١، لاحظ العالم "ربنز" من محطة أبحاث التدريبات التعليمية، أن الدلافين ذات الأسنان الكبيرة والأنوف الدقيقة التي تعيش في جزر الكناري، يأخذ الحزن لديها شكلاً جماعيًا أيضًا، حيث إن الأم لا تقوم وحدها بدفع جثة وليدها النافق، بل تشاركها دلافين أخرى، وعندما يفتر عزم الأم وتخور قواها ويصاحبها الإعياء، تقوم هذه الدلافين بحمل الجثة فوق ظهورها.

ولعل السؤال الذي يتبادر إلى الأذهان في هذا الصدد هو: هل للحيوان إدراك لمفهوم الموت؟ الجواب: لا نعرف بالتأكيد، ولا توجد أدلة دامغة على أنها تفعل ذلك. إلا أن إدراك المحنة بسبب فقدان عزيز لدى الحيوان، قد تكون متعبة وقاسية عليه جسديًّا خاصة في البراري، حيث يقوم بجهود مضنية لتأمين الطعام إضافة إلى تجنب الافتراس. وكما يقول "جون آريشر" في كتابه "طبيعة الكآبة لدى الحيوان": أما المشاركة، ففي العزاء، والعمل على جمع الطعام، والقيام بالحياة الطبيعية. لذلك عندما نشاهد حيوانين متعلقين ببعضهما وفجأة أُجبرا على الانفصال، فإنهما سيقومان بالبحث عن بعضهما على أمل اللقاء يومًا وبناء حياة جديدة. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

hiramagazine.com

د. ربيع خليفة بيومي*

الكرامة الإنسانية وأثرها في البناء الحضاري

شاء الله ﷻ أن يكون الإنسان هو أعظم مخلوق وأسمى كائن؛ ميزه بالعقل والإرادة، وأمر ملائكته بالسجود له تحية وتكريمًا، ومن هنا أنشأ الله ﷻ لهذا الإنسان الحقَّ في الكرامة والسمو عن بقية المخلوقات. وكان من مقتضى نعمة هذا التكريم، حرمة النفس، وبعث الرسل، وتنزيل الشرائع الضابطة لعلاقة الإنسان بالإنسان، والمنظمة لها تنظيمًا يحفظ ما منحه الله إياه من تكريم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾(الإسراء:٧٠). فالكرامة قيمة عليا جامعة خص الله ﷻ بها الإنسان، وتعني فيما تعني؛ النفاسة، والرفعة، والعزة، وعلو الشأن، وانتفاء أي معنى من معاني الخسة والصغار والذل والهوان والابتذال.

من تجليات التكريم الإلهي للإنسان

تأتي خلافة الإنسان في الأرض -بطاقاته وقدراته الروحية والعقلية والعملية الخلاقة- في مقدمة تجليات التكريم الإلهي، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:٦١). والمعلوم أن كرامة الإنسان قد شملتها أصول الرسالة المحمدية، على مستوى العقيدة أولاً، ثم في الجانب السياسي والاجتماعي والحضاري بكل مظاهره وكامل أنشطته.

والذي تتعين الإشارة إليه، هو أن ما خص الله ﷻ به الإنسان من عطايا ونعم -متمثلة في صورة قويمة في الخلقة وسامية في الفطرة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤)، وعقلٍ رُفع به فوق جميع الكائنات- كل ذلك هو للإنسان من حيث هو إنسان، فلا يتوقف

على عقيدة أو جنس أو لون أو ثقافة أو قوة أو ضعف.

ويمكن أن نجمل هذه التجليات أو المظاهر في نقاط محددة، طبقًا لآي القرآن الكريم، فيما يأتي:

• خلق الله تعالى إياه بيده ونفخه فيه من روحه، وهذا لم يحصل لكائن آخر: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾(ص:٧١-٧٢).

• إسجاد الملائكة له تكريمًا وتحديدًا للأدوار: ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾(البقرة:٣٤).

• إعطاؤه العقل الناقد المميّز بين الحق والباطل وهو ما لم يعط لغيره، وأمره بالتفكر: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾(سبأ:٤٦).

• تخييره بين الخير والشر: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾(البلد:١٠)، ولا يوجد معه كائن مختار -غير الجن- والكائنات كلها بعد ذلك مسيرة.

• تسخير الكون كله له -سمائه وأرضه، أحيائه وجماداته- قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الجاثية:١٣).

• مكافأته بعد ذلك إن وفق، ومعاقبته إن أساء: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾(فصلت:٤٦).

من مقتضيات الكرامة الإنسانية

أ- المساواة: انعكست تلك الرؤية للكرامة انعكاسًا تامًّا على مسألة جليلة الأهمية، وهي قضية "المساواة".

المساواة في الأساس -وطبقًا لما أقره الإسلام- تعم الجنس البشري، وهي المساواة في القيمة الإنسانية المشتركة التي تتمثل في الاعتقاد بأن جميع الناس "سواسية" في طبيعتهم البشرية، وعنصرهم الإنساني من حيث هو، وخلقهم الأول، وأن ليس هناك جماعة تنحدر من سلالة خاصة ينتقل أصلها هذا إليها بطريق الوراثة، إنما يقوم التفاضل بين الناس جميعًا على أسس خارجة عن ذلك كله، مثل الكفاية والعلم والأخلاق والعمل.

إن مبدأ المساواة في الإسلام يتأسس على قاعدتين راسختين هما: وحدة الأصل البشري، وشمول

إن مشكلة كل أمة، هي في جوهرها، مشكلة حضارتها، ولا يمكن لأمة أن تفهم مشكلتها وتُعالجها ما لم ترتفع بفكرتها إلى الأحداث الإنسانية التي تكمن فيها، وفيها وحدها عملية قيام الحضارة أو انهيارها.

حراء

الكرامة الإنسانية لكل البشر، وذلك من منطلق قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾(فاطر:١١)، وقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(الحجرات:١٣)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠)، وقوله ﷺ: "الناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب" (رواه الترمذي).

ولو تلمسنا سرّ هذه المساواة، لوجدناه نابعًا من عقيدة التوحيد ذاتها وما يتأسس عليها من عبادات وتعاليم. فالجميع -طبقًا لهذه العقيدة- ينتظم سلك العبودية المطلقة لله تعالى وحده، ومن تطاول فوقها، وجب قمعه حتى يستكين في مكانته لا يعدوها: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾(مريم:٩٣). كما أن المسلم في نظرته إلى الناس -قويهم وضعيفهم- يدرك أن زمام أمورهم في النهاية بين يدي الله تعالى، فلا يكون هيابًا لجبار، أو أسيرًا لتقسيم طبقي عنصري يسلبه إنسانيته، لثقته في قول الله ﷻ له: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾(الأنعام:١٧-١٨). فلا شك أنه "بهذه الروح المفعمة باليقين والإباء، أبى الإنسان المسلم الاعتراف بأن يكون لأحد من الخلق اختراق أسوار المساواة العامة، والاستعلاء على غيره من الناس".

إذن فلا تفريق بين الناس -كل الناس- من هذه الجهة، على اعتبار الديانة أو المذهب أو العرف أو الجنس أو الشعب أو الدولة أو الأمة أو اللون أو اللغة أو النسب أو السلالة، أو أي امتياز طبقي ووراثي.

ولقد اتخذ الإسلام ذلك دعامة لجميع ما سنه من نظم لعلاقات الأفراد بعضهم ببعض، وطبقه على جميع

hiramagazine.com

إن ضمان الشعور بالكرامة الإنسانية، هو ما يحرر الفرد من كل خوف وضغط يميلان عليه؛ لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، حينئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريق فهم الحياة وإزهارها.

حراء

المناحي والأحوال والظروف التي تقتضي العدالة الاجتماعية وكرامة الإنسان أن يطبق في شؤونها.

وإنما يكون التفضيل على أساس بعيد عن نطاق الجوهر "الإنساني" الواحد عند جميع البشر. ولا شك أن تحقق المساواة يتطلب -أو يلزم عنه بالضرورة- قيام العدالة واقعًا، وتمتع الناس بها.

ب- كفالة الحريات: إن الحريات على اختلافها، التي ضمنها الإسلام للإنسان؛ من حرية الاعتقاد، إلى حرية التفكير والتعبير، والعمل، والحرية السياسية، وضرورة حفظ العرض والنفس والمال -مع التأكيد الشديد على أن ذلك كله أساسه عدم الاعتداء على حق الآخر- هي في الحقيقة من أهم مقتضيات الكرامة، وهي في الوقت نفسه، تعزيز لقيمة الإنسان، وعمل على ترسيخ وتجذير التكريم الإلهي له. وغضب الفاروق عمر ﷺ عندما اشتكى القبطي إليه عمرو بن العاص ﷺ وابنَه، وقولته المشهورة "متى استعبدْتم الناسَ وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا"، دلالة على احترامه البالغ للكرامة الإنسانية. وهذا نابع من روح الإسلام، ونظرته السامية إلى الإنسان مسلمًا كان أم غير مسلم.

جـ- مشكلة الرق: ثم يجيء موقف الإسلام من قضية الرق، ومعالجته العميقة لها إنسانيًّا واجتماعيًّا، تأسيسًا على ما كرسه من قيم الكرامة والعدالة والحرية والمساواة. وفي مقدمة عناصر تلك، المعالجة الجامعة -دون الدخول في تفصيلات وتفريعات سبق العلماء إلى درسها- أنه جعل تحرير الرق من مصارف الصدقات، ومن بين كفارات الأيمان، والقتل الخطأ، والفطر في رمضان والظهار.

وخلاصة ذلك كما يصوغها الباحثون، أن رسالة الإسلام أغلقت المصادر والروافد التي تمد نهر الرقيق بالمزيد والجديد، ولم يبق سوى الحرب المشروعة، وحتى رقيقها أو أسراها شرع لهم الفداء سبيلاً لحريتهم، بل ندب المنّ: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾(محمد:٤). ثم ذهب الإسلام، فوسع المصادر التي تؤدي إلى تجفيف هذا النهر، بالعتق والتحرير.

ولنا على ضوء ذلك أن نتصور قيمة الدور الذي اضطلع به الإسلام في التكريس لقضية كرامة الإنسان، ومن ثم إحاطة المساواة وأخواتها من حرية وعدالة وغيرهما بسياج متين، عقديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا ومعنويًّا وماديًّا، بما يؤسس -هذا وغيره- لانطلاقة الإنسان في ظل ذلك، نحو تحقيق رسالته، وغاية وجوده على الأرض من بناء وتعمير حضاريين.

من أسس البناء الحضاري

أ- الإنسان: ليس من شك في أن بحث العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، أمر ضروري وبالغ الأهمية. ولعل من الدقة القول بأن مشكلة كل أمة هي في جوهرها، مشكلة حضارتها، ولا يمكن لأمة أن تفهم مشكلتها وتُعالجها ما لم ترتفع بفكرتها إلى الأحداث الإنسانية التي تكمن فيها، وفيها وحدها عملية قيام الحضارة أو انهيارها. ومن هنا فإن مسألة بناء الحضارة، تتطلب أن نفكر أول ما نفكر، في عناصر ومقومات هذا البناء.

ويرى فلاسفة الحضارة، أن هناك عوامل عديدة تؤسس لقيام أية حضارة، منها العلم والقيم من حقٍّ وخير وجمال. وللقيم دور كبير ليس في تأسيس الحضارة فحسب، ولكن في الحفاظ عليها وضمان استمرارها، ومع هذا يمثل الإنسان الأهمية المقدمة في هذا الصدد. فالحضارة تعتمد على أقصى تطور ممكن في قوى الكائنات الإنسانية الفردية، وما القيم المذكورة إلا تجليات لتجربة الأفراد. ولهذا يرى المنظرون لإشكالية قيام الحضارات وانهيارها، أن أي نظام، سياسي أو ديني أو تعليمي أو ثقافي أو اجتماعي، لا يوفر المناخ الإنساني المناسب لخصوبة الحياة والعطاء والإبداع، لا تلبث أن تتلاشى وتتبخر في حرارة الطغيان والاستبداد.

hiramagazine.com

وانطلاقًا من ذلك، لا بد من استحضار قضية حرية الفرد بصورها المختلفة، إذ لا سبيل إلى الوصول للحضارة بغير "حريات" الفرد.

إن الحضارة تقوم أول ما تقوم على الإنسان، وتقوم للإنسان، حيث إن هدفها الأساس هو تنميته، وتطويره، وتلبية حاجياته، وتحقيق إنسانيته في أبعادها وجوانبها المتنوعة؛ السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولهذا فدوره في منظومة الحضارة مركزي إلى أبعد حد، أو هو -كما يرى بعض الباحثين- الخلية الحضارية الأولى التي يجب تكوينها وبناؤها ورعايتها متناغمة مع شروط النهضة وحيثيات الحضارة. ولو توفر الحرص على تنمية قدراته، وصقل مواهبه، ونفض غبار التخلف عن عزيمته وتفجير طاقاته، لاستيقظت روح العمل فيه وتدفق عطاؤه الحضاري. ويمكن القول في هذا السياق، إن أعظم اكتشافات اليابان هو الإنسان ذاته، إذ به نهضت، وبه تجاوزت نكبة القنبلة الذرية، وبه شيدت حضارة تطاول بنيانها.

إذن، فضمان الشعور بالكرامة الإنسانية، هو ما يحرر الفرد من كل خوف وضغط يميلان عليه. وفي ذلك يرى مؤرخ الحضارة "ول ديورانت" أن الحضارة تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق؛ لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع، وعوامل الإبداع والإنشاء، حينئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريق فهم الحياة وإزهارها.

ويرى الفيلسوف "هيجل" أن فكرة الحرية هي جوهر العقل، والعقل هو الذي يحكم العالم، وعبقرية الأمة التي تتجلى في الأفراد هي الخالق الحقيقي للحضارات.

أما مالك بن نبي -واتساقًا مع ما سبق شرحه- فيرى أننا إذا أردنا تحليل منتجات أية حضارة لنقف على أسس بنائها، نجدها تتكون من ثلاثة عناصر: الإنسان لأنه ولد هذه المنتجات بفكره وصنعها بيده، التراب ومنه كل شيء على الأرض وفي باطنها، الزمن وهو الوقت الذي اختمرت فيه فكرة هذا المنتج أو ذاك وتبلورت في صورتها القائمة.

ويمكن صياغة ذلك في معادلة رياضية، يحرص

إن إنجاز الحضارة ونموها، يتحقق متى حفظت للإنسان حقوقه الأساسية في الكرامة والحرية والمساواة، حتى تجد طاقته مناخها الصالح الذي يتيح لها أن تنمو وتنتج، وإن فقدت هذا المناخ انكمشت وضمرت، وفقدت قابلية التحرك المجدي والانتاج النافع.

حراء

مالك بن نبي على إيرادها في غير موضع على هذا النحو: الحضارة = الإنسان + التراب + الوقت

وبقليل تأمل إذن، نقف على الدور المحوري المقدم للإنسان في المسألة الحضارية، وهذا يستوجب إعداد هذا الإنسان وتكوينه، وبناءه بناء يجعله قادرًا على صنع الحضارة، لا على "تكديس" منتجاتها واستهلاكها.

بـ- الروح والمادة في البناء الحضاري: ليست غائبة عنا فكرة الدين ودورها الأساس في بناء الحضارة، بما تقدمه من رؤية مرجعية في الثقافة والسياسة والاجتماع والاقتصاد، بل ورؤية أشمل إلى الكون والوجود والإنسان ذاته، تتبدى على مكونات الحضارة ومقوماتها المختلفة، وهنا تبرز أهمية الإنسان وقيمته وكرامته في الثقافة الإسلامية. إذن الفكرة الدينية رافقت دائمًا تركيب الحضارة خلال مسيرة التاريخ الطويل، وهو أمر معروف -أو محسوم في أكثر الأحيان- لدى الباحثين والمفكرين.

وفي هذا الإطار، يرى بعض فلاسفة الحضارة، أن الحقيقة الأولية الواضحة التي تنذر بانحلال الحضارة الغربية، هي أن تقدمها المادي أكبر بكثير من تقدمها الروحي، وهذا اختلال للتوازن. فالاكتشافات التي جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفنا على نحو لم يسبق له مثيل، هي نفسها التي أحدثت ثورة سلبية في العلاقات بين الأفراد بعضهم ببعض، وبين الجماعات والدول.

وبعيدًا عن الاختلاف الشديد حول مفهوم الحضارة والثقافة، فلعل من الجدير ذكره أن مفهوم الحضارة يشمل كل ما من شأنه تحقيق الحياة الإنسانية الكريمة والرقي بالإنسان؛ ثقافة وقيمًا وسياسة واجتماعًا واقتصادًا. وقد أكد بعضهم أننا مهما فرقنا بين المدنية والحضارة، فلا يمكن تجاهل التأثير المتبادل بين النشاط

hiramagazine.com

الروحي والنشاط المادي في الحياة، ولكل دور بالغ في توجيه الآخر.

إن أي مجتمع إنساني، يتخذ السمة الحضارية، إذا توفرت فيه شروط أساسية، تتجاوز المظاهر المادية إلى القيم المعنوية تحقق لديه الاستقرار. فالوحدة في أصل النشأة لدى البشر، قيمة معنوية ذات مدلول بالغ وأثر فاعل في المسألة الحضارية، لما ينشأ عنها من التعاون وتضافر الطاقات فيما ينفع البشر جميعًا، لأن هذه القيمة المعنوية توفر الاستقرار النفسي والاطمئنان الوجداني الذي يدفع إلى الإنجاز المثمر.

ولهذا يمكن الجزم بأن إنجاز الحضارة ونموها، يتحقق متى حفظت للإنسان حقوقه الأساسية في الكرامة والحرية والمساواة، حتى تجد طاقته -بما تحفل به من مواهب وطاقات متعددة- مناخها الصالح الذي يتيح لها أن تنمو وتنتج، وإن فقدت هذا المناخ، انكمشت وضمرت، وفقدت قابلية التحرك المجدي والإنتاج النافع.

إذن إن الكرامة التي يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية، تشمل الحماية والحصانة المكفولة للإنسان، والتي يستغلها من طبيعته: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، وتشمل عزة وسيادة تتغذيان من عقيدته: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(المنافقون:٨)، ليترتب على ذلك كرامة أخرى هي كرامة استحقاق وجدارة، يستوجبها بعمله وسيرته في حقل الإثمار الحضاري بأبعاده المختلفة، قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾(الأحقاف:١٩)، وقال تعالى: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾(هود:٣).

وإجمالاً، تنتهي الحضارة -أية حضارة- عندما تفقد في شعورها معنى الإنسان. والحضارة الإسلامية انطفأت جذوتها يوم فقدت في أساسها قيمة الإنسان. وإذا كانت هناك محاولات نهوض حقيقي في العالم الإسلامي، فلن تنجح إلا بقدر ما تضع في ضمير المسلم من قيمة وكرامة، له وللآخر، حتى لا يقع في هاوية العبودية أو الاستعباد. ■

(*) جامعة الأزهر الشريف / مصر.

البشرية المعذَّبة

في الدوّامات غارقة،
حائرة ذاهلة..
هذيانًا تَهذين،
وأنتِ تُحتَضَرين،
وأصواتَ استنجاد تُطلقين..
إلى متى هكذا تبقين،
ومتى المنجدَ ستجدين؟!

* * *

د. عبد الدائم الكحيل*

السلوك الإيجابي

لو تأملنا تعاليم القرآن والأوامر والنواهي، نلاحظ أنها مليئة بالسلوك الإيجابي، ولذلك، فإن المؤمن أكثر الناس سعادة في حياته، وهذا ما أثبته العلماء مؤخرًا.

في مقالة نشرها موقع بي بي سي، وجد الباحثون بجامعة تكساس، أن السلوك الإيجابي يؤجل مراحل الشيخوخة. وأضاف الباحثون أن الأشخاص الذين ينظرون إلى الحياة بنظرة يملؤها الأمل، تقل عندهم ظهور علامات الهرَم مقارنة بالمتشائمين. وقال الباحثون إن نتائج الدراسة التي نشرت في مجلة "سيكولوجي أند إد جينج"، تشير إلى أن العوامل النفسية بالإضافة إلى الجينات والصحة البدنية، تلعب دورًا في تحديد مدى سرعة بلوغ سنّ الشيخوخة.

وأجرى فريق البحث بجامعة تكساس تجارب على ١٥٥٨ من كبار السن، لبحث ما إذا كانت هناك علاقة بين الأحاسيس الإيجابية، وبداية مرحلة الوهن. وفي بداية الدراسة قبل سبع سنوات، كان جميع المتطوعين

لقد عثر فريق من العلماء على دليل يثبت ما للتفاؤل من محاسن على حياة المرء؛ فقد توصل فريق من علماء النفس إلى أن الأشخاص المنشرحي البال، المتفائلين في نظرتهم إلى التقدم في السن، يعيشون لمدة أطول من أقرانهم الذين يستبد القلق بهم.

حراء

للمشاركة في الدراسة، في صحة جيدة.

وقام الباحثون بقياس تطور أعراض الشيخوخة عند المشاركين، من خلال قياس فقدانهم للوزن والجهد وسرعة السير وقوة قبضتهم. وتوصل الباحثون إلى أن المشاركين الذين يحملون رؤية إيجابية للحياة، كانوا أقل عرضة لأعراض الوهن من غيرهم. وأكد الباحثون على الحاجة لإجراء مزيد من الأبحاث لتوضيح السبب في هذه العلاقة.

غير أن الباحثين تكهنوا بأن المشاعر الإيجابية قد تؤثر بشكل مباشر على الصحة عن طريق تغيير التوازن الكيميائي في الجسم. وربما كان السبب في هذه الصلة هو أن التوجه المتفائل يساعد في تعزيز صحة الإنسان من خلال ترجيح نجاح هؤلاء الأشخاص في الحياة.

وهنا أود أن أتذكر معكم قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾(يونس:٥٨)؛ فهذه الآية تخبرنا بأن المؤمن يفرح برحمة الله تعالى. هذا الفرح هو نوع من أنواع السلوك الإيجابي، وهو نوع من أنواع التفاؤل الذي يمنح المؤمن السعادة وطول العمر، ويزيد من مناعة جسده ضد الأمراض.

يقول الدكتور "جلين أوستير" رئيس فريق البحث: أعتقد أن هناك علاقة بين العقل والجسم، حيث إن أفكارنا وسلوكنا ومشاعرنا تؤثر على الوظائف البدنية وعلى الصحة بشكل عام، إما عن طريق آليات مباشرة مثل وظائف جهاز المناعة، أو عن طريق آليات غير مباشرة مثل شبكات الدعم الاجتماعية.

وقد أشارت دراسة أخرى نشرت في المجلة نفسها، إلى أن التوجه العقلي قد يؤثر في الأداء البدني. وفي هذه الدراسة طلب فريق البحث بجامعة نورث كارولاينا من ١٥٣ شخصًا من مختلف الأعمار، إجراء اختبارات على الذاكرة بعد أن سمعوا كلمات إيجابية وسلبية.

وتضمنت العبارات السلبية الاضطراب والعته والخرف، أما العبارات الإيجابية فتضمنت الإنجاز والنشاط والتميز. وأظهرت النتائج أن أداء الذاكرة عند المشاركين في الدراسة من البالغين، كان ضعيفًا بعد أن تعرضوا لعبارات سلبية.

وعلى النقيض، كان هناك اختلاف كبير في أداء الذاكرة بين الشباب والبالغين الذين تعرضوا لعبارات إيجابية. وقال الباحثون: إن دراستهم تشير إلى أنه إذا تم التعامل مع كبار السن على أنهم أعضاء فاعلون في المجتمع، فإنهم سيكونون كذلك. وقال "توماس هيس" رئيس الفريق العلمي: قد تكون هناك أسباب اجتماعية ذات تأثير قوي على أداء ذاكرة البالغين.

وهنا نتذكر حديثًا نبويًا رائعًا ومليئًا بالتعاليم الإيجابية، يقول ﷺ: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خيرٌ" (رواه مسلم). فهذا يحرِّض المؤمن على أن يكون قويًا ليس في جسده فقط، بل في إيمانه وثقافته وأخلاقه وصبره.

والصبر هو سلوك إيجابي عظيم لم يدرك العلماء أهميته إلا حديثًا، ولكن الله تعالى جعل جزاء الصبر دخول الجنة بغير حساب: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(الزمر:١٠).

كذلك فإن القرآن يخبرنا بأن المؤمن لا يحزن أبدًا، لأن الحزن سلوك سلبي. ولو تأملنا كلمة "تحزن" في القرآن، وجدناها مسبوقة بكلمة "لا" دائمًا، وهذا يدل على أن المؤمن لا يحزن. ولنتأمل في هذه الكلمات النبوية التي جاءت في أصعب الظروف التي مر بها النبي الأعظم ﷺ وهو في الغار، يقول تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠).

التفاؤل لزيادة العمر

وقد عثر فريق من العلماء على دليل يثبت ما للتفاؤل من محاسن على حياة المرء؛ فقد توصل فريق من علماء

hiramagazine.com

النفس الأمريكيين إلى أن الأشخاص المنشرحي البال، المتفائلين في نظرتهم إلى التقدم في السن، يعيشون لمدة أطول من أقرانهم الذين يستبد القلق بهم.

الآن لنتأمّل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٩)؛ إنها آية تحث المؤمن على السلوك الإيجابي في عدم الوهن وعدم الحزن. ويقول العلماء: إن إحساس الإنسان بالوهن، يضعف من جهاز المناعة لديه، كذلك شعور الإنسان بالحزن الدائم، يسبب له الاضطرابات النفسية المختلفة.

وجاء في بحث أنجزه الفريق التابع لجامعة "ييل" في ولاية كونيكتيكات، أن الأشخاص الذين يتملكهم الخوف من الشيخوخة، تظهر عليهم أعراض التقدم في السن بسرعة أكبر. ويضيف العلماء في البحث الذي نشروه في مجلة "بيرسونالييتي أند سوشيال سايكولوجي" بأن من يتقبلون الأمر برحابة صدر، يمكن أن يعيشوا سنوات أطول ممن يحاولون الكف عن التدخين أو يمارسون التمارين الرياضية.

إن المؤمن لا يخشى الشيخوخة، بل يحب لقاء الله، ولذلك قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(العنكبوت:٥). والمؤمن يكون سعيدًا لحظة الموت فلا يخاف ولا يحزن، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾(فصلت:٣٠). وتأملوا كم تحوي هذه الآيات من رسائل إيجابية للمؤمن، تجعله يعيش فرحًا سعيدًا فلا يحزن ولا يخاف، وبالتالي إن هذه الآيات تعالج القلق حيث تفشل وسائل علم النفس.

وقد تبين للباحثين الأمريكيين، أن من لا يخيفهم تَقدُّم قطار الحياة، يعيشون في المتوسط سبع سنين ونصف أكثر من أولئك الذين يقضون وقتهم حسرة على ما مضى من أيامهم. كما أعرب الفريق الذي تقوده الدكتورة "ريبيكا ليفي" عن اعتقادهم بأن التعامل السلبي مع عملية الشيخوخة، يكون له تأثير مباشر على التشبث بالحياة.

وقال العلماء: إن إيجابيات القبول بقانون الشيخوخة،

التعامل مع الواقع برضى نفس وقناعة يجعل الإنسان أكثر سعادة. والإنسان الذي يتذمر ولا يرضى بما قسم له من الرزق، نجده أكثر تعاسة، ويكون نظامه المناعي ضعيفًا. وهذا دليل على أن التفكير بالأمراض والخوف والحزن والتفكير السلبي، يزيد من احتمال الإصابة بالأمراض المزمنة.

حراء

أكبر بكثير من العمليات ذات الطابع الفيزيولوجي؛ كخفض ضغط الدم، والكوليسترول، اللذين يعتقد أنهما يمنحان فرص حياة تبلغ أقصى درجاتها أربع سنوات إضافية.

وهذا يعني أن العامل النفسي أهم بكثير من العامل الفيزيولوجي، بمعنى آخر؛ فإن التعاليم الإيجابية التي يتلقاها الإنسان ويمارسها، لها أثر كبير على سعادته وطول عمره أكثر من تأثير الدواء والعناية الطبية. ولذلك فإن القرآن مليء بالتعاليم الإيجابية والتي لا يتسع لها هذا البحث، ولكن كمثال على ذلك، نتأمل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(الزمر:٥٣)؛ إنها آية مفعمة بالرحمة، ومليئة بالتفاؤل وعدم اليأس. وهذا يذكرنا بقصة سيدنا يعقوب عليه السلام بعد ما فقد ابنيه يوسف وأخاه، فلم ييأس من رحمة الله، حيث خاطب أبناءه: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(يوسف:٨٧)؛ لقد اعتبر القرآن أن اليأس هو كفر بالله تعالى، وذلك ليعطينا رسالة قوية بأن اليأس من رحمة الله محرم في الإسلام، وهذا ما مارسه المسلمون الأوائل، فمنحهم القوة، وفتحوا به الدنيا.

كما أن تأثير التعامل الإيجابي مع التقدم في السن، يكون أوضح من عوامل أخرى؛ كالحفاظ على خفة الوزن، والامتناع عن التدخين، وممارسة التمارين الرياضية... وهي عوامل يسود الاعتقاد بأنها يمكن أن تضيف -في أقصى الأحوال- ثلاث سنوات إلى حياة المرء.

وقد بنى الباحثون خلاصتهم على بحث شمل ٦٦٠

hiramagazine.com

متطوعًا، تتراوح أعمارهم بين خمسين عامًا فما فوق. وقد قورنت معدلات الوفاة عند من شملهم البحث، بكيفية إجابتهم على استطلاع للرأي أجري قبل اثنين وثلاثين عامًا. فقد سئل المستَجْوبون عن موافقتهم أو اعتراضهم على مجموعة من المقولات من قبيل: "بقدر ما تصبح كبيرًا في السن بقدر ما تصبح عديم الفائدة". ويقول فريق الدكتورة "ليفي": إن التشبث الأكيد بالحياة يفسر -بشكل جزئي- العلاقة بين التفكير الإيجابي وطول العمر.

غير أن هؤلاء الباحثين يشيرون إلى أن هذا ليس السبب الوحيد لذلك، فبرأيهم يلعب الإجهاد دورًا آخر في التأثير على القلب. وكان بحث سابق قد أظهر أن قلوب وشرايين المتشائمين من التقدم في السنّ، لا تستجيب بشكل جيد للإجهاد والضغط.

ويقول الباحثون: إنه من المحتمل أن التشبع بمواقف المجتمع السلبية من الشيخوخة، قد يكون لها تأثير على المرء وفيه، من دون أن يعلم بذلك. ويؤكد العلماء أن دراستهم تحمل رسالتين؛ أولاهما محبطة، ومفادها أن النظرة السلبية للذات، تقلل من احتمالات الحياة. والأخرى مشجّعة، وفحواها أن النظرة الإيجابية للذات، يمكن أن تطيل العمر. ونبه العلماء في الوقت ذاته، إلى أن تعامل المجتمعات الغربية بشكل غير إيجابي مع المتقدمين في السنّ، يمكن أن يفاقم المشاكل.

ونستطيع أن نستنتج من هذه الدراسات ما يلي:

١- التفاؤل يزيد من مقاومة الجسم للأمراض، ويمنح الإنسان السعادة في حياته. وهذا سلوك نبوي، لأن سيدتنا عائشة ﵂ عندما سئلت عن أخلاق النبي ﷺ قالت: "كان خُلُقُه القرآن" (رواه مسلم)؛ فقد طبق ﷺ القرآن تطبيقًا كاملاً، ولذلك حصل على السعادة الحقيقية، ويجب علينا أن نقتدي به في سلوكنا، فتكون أخلاقنا هي القرآن.

وعلى سبيل المثال، هناك قاعدة إلهية للتعامل مع المصاعب والمشاكل اليومية، وحيث يعجز الطب النفسي عن إعطاء الرضى بالواقع، نجد القرآن يمنحنا هذا الرضى، يقول تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦)؛ فلو طبقنا هذه الآية، زالت جميع المشاكل والهموم وما تسببه من قلق وخوف، لأن المؤمن يرضى بقضاء الله ولو كان الظاهر أن فيه الشر والسوء، ولكن الخير قد يكون بعد ذلك، فينتظر المؤمن هذا الخير، فيكون قد حقق التفاؤل المطلوب، وابتعد عن الحزن، وهذا علاج ناجع للقلق.

٢- التفكير الإيجابي أهم وأكثر فاعلية في علاج الأمراض من العلاج الطبي. بل إن أطباء الدنيا فشلوا في منح الأمل أو السعادة لإنسانٍ أشرف على الموت، ولكن تعاليم القرآن تمنحنا هذه السعادة مهما كانت الظروف.

لقد قالت فاطمة ﵂ وأبوها ﷺ على فراش الموت: وا كرباه، فقال لها ﷺ: "لا كرب على أبيك بعد اليوم". انظروا إلى هذا التفاؤل؛ النبي ﷺ لحظة الموت، كان سعيدًا وفرحًا بلقاء ربه، فماذا عنا نحن المسلمين؟

٣- التعامل مع الواقع برضى نفس وقناعة، يجعل الإنسان أكثر سعادة. والإنسان الذي يتذمر ولا يرضى بما قسم له من الرزق، نجده أكثر تعاسة، ويكون نظامه المناعي ضعيفًا. وهذا دليل على أن التفكير بالأمراض والخوف والحزن والتفكير السلبي، يزيد من احتمال الإصابة بالأمراض المزمنة. فقد كان النبي ﷺ أكثر الناس تفاؤلاً برحمة الله، وكان يحضّنا على التفاؤل والرضى، حيث يقول: "ما من عبدٍ مسلم يقول حين يُصبح وحين يُمسي ثلاث مرات: رضيتُ بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، إلا كان حقًّا على الله أن يُرضيه يوم القيامة" (رواه الترمذي).

إن كل ما سبق تلخصه لنا آية خاطب بها الله نبيَّه، ليعلمنا كيف نسلك سلوكًا إيجابيًّا في حياتنا، يقول تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾(النحل:١٢٧). الصبر وعدم الحزن وعدم التذمر والضيق، كل هذا له نتيجة، ولكن ما هي؟ هذا ما نجد الجواب عنه في الآية التالية: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾(النحل:١٢٨). ■

(*) باحث في الإعجاز العلمي والرقمي في القرآن والسنة / سوريا.

المراجع

(1) http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/sci_tech/newsid_3652000/3652066.stm

(2) http://news.bbc.co.uk/hi/arabic/sci_tech/newsid_2159000/2159103.stm

hiramagazine.com

د. عبد المجيد بوشبكة*

القابضون على الجمر

في ظل تسارع الأحداث الدولية وتعاظم ابتلاءات الأمة الإسلامية، يحز في النفس أن نرى زُمرة من العلماء الكبار بين متَّهم أو مطارد أو مسجون... يحز في النفس أن نرى ذلك في زمن كَثُر فيه اللغط حول كثير من المصطلحات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب... يحز في النفس أن نرى ذلك يتزامن مع تشريع الأبواب أمام كل ناعق يطلب الحرية في كل مجالات الحياة، حتى أصبحت المطالبة بتغيير المعلوم من الدين بالضرورة حق يُصان للمطالبين به، بل وصل الأمر إلى تواتر أصوات تطالب بالحق في السِّحاق واللِّواط ويرون أنه حق مشروع لهم.

لكن في الضفة الأخرى، نرمُق معاناة كثير من النزهاء والشرفاء والصالحين عبر رقعة هذا العالم الفسيح وهم يئنّون تحت وطأة الظلم أو التضييق أو التشويه. ذنبهم الوحيد أنهم اختاروا طريقًا غير الذي أريدَ لهم، أو قالوا رأيًا لا يروق ولاة أمرهم، أو دافعوا عن فكر لم يخرج من عباءتهم.

المدهش في الأمر هو وجود تواطؤ غريب، أو إجماع سكوتي -بلغة الأصوليين- على ما يُكابده عدد من علماء الأمة في زمن العولمة من مظالم ومضايقات، جعلت الكثيرين منهم يفرون إلى بلدان أحسنت ضيافتهم بعد ما خذلهم بنو قومهم أو غدروا بهم، مُفارقين الأهل، مُغرَّبين عن الأوطان، لا أنيس لهم في وحشتهم إلا الله تعالى. وجريرتهم أنهم: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾(فصلت:٣٠)، وتهْمتهم أنهم صدعوا بما يرونه حقًّا، وعملوا على تبليغه للناس صدقًا.

كل هذا قد يتجرعه الإنسان في ظل مُسوغ معين إن تعلق بالعوام، لكن حين يُبتلى بذلك السلوك الشنيع فطاحلة علماء الأمة والهامات في الفكر والإبداع والتجديد، من الذين يعدّهم الناس أبطالاً في التضحيات والعطاء، وجعلوهم في مقدمة ورثة الأنبياء... حين تسير الأمور في هذا الزقاق، حقيق بالعقلاء أن يتساءلوا: لماذا يكال الناس بمكيالَين؟ ومَن المستفيد من التضييق على هذه النخبة الطيبة من أعيان الأمة وورثة الأنبياء؟ بل من المسؤول الحقيقي الكامن وراء هذه الشطحات التي لن ينساها التاريخ، ولن تُهدر يوم الحساب الأكبر؟

وفي ظل هذه الأزمات الفردية والمجتمعية والعالمية، تتسابق بعض الجهات -وبحسن نية- من أجل التسويق لفكرة الابتعاد عن كل ما من شأنه الزج بالناس في متاهات لا يعلمون مآلاتها. حينها يحق للعقلاء التساؤل: ألسنا أمة الشهادة التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾(البقرة:١٤٣)، ألم يقل لنا ربنا سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾(المائدة:٨)؟!

إن مناقشة هذه القضية جزء من مبدأ أصيل في العرف والقانون كما في الدين ولو ظهر بمسميات شتى، إنها قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي توسع علماء أمتنا الأصلاء في تحديد مواصفاته وشروطه ووسائله فضلاً عن مجالاته وأهله. وقد عده الكثير منهم قاعدة محورية في الدين كما في الدنيا.

إن التطاول على علماء الأمة المشهود لهم بالسبق بين أهل العلم، أصبح من منكرات العصر. ولعل أمثلة الراقصين على جراحنا كثيرة في هذا الباب، إلا أن آخرها نزل مثل الصاعقة على كثير من الصادقين من أبناء أمتنا العظيمة. إنه العلامة النابغة، المبدع المجدد، العابد الزاهد القدوة، الأستاذ محمد فتح الله كولن، الذي شُنت عليه هجمات منظمة منذ سنوات بعيدة، ليس ما يحدث اليوم إلا مشهدًا من فصولها. والغريب أن كل الابتلاءات السابقة واللاحقة تكاد تدور حول تهمة واحدة، وهي اتهام هذا الرجل الصادق الأصيل بمحاولة الانقلاب على الدولة. والأغرب من ذلك أن أحدًا من كل المتهِمين قديمًا وحديثًا، لم يستطع تقديم دليل واحد على كل تلك الاتهامات، ومع ذلك فهي مستمرة اليوم ظلمًا وعدوانًا. والعجيب في الأمر أن هذا الرجل الذي ابيضّ شعره وتعب جسمه وتقدم سنه، استمر قابضًا على دينه ومنهجه كالقابض على الجمر، لم يَعْيَ أو يمل من تجرع كل تلك الاتهامات ولسنوات طويلة بصبر غريب، ونفي للتهم بأسلوب لبيب، وتلمس الأعذار للمتّهمين عجيب... إنه نموذج من الذين نقرأ عنهم في التاريخ.

والذي عنده أدنى معرفة بمنهج هذا الرجل، يعلم أنه يدعو -وفي سلمية منقطعة النظير- إلى أن إصلاح أوضاع الأمة لا تستقيم إلا بالرجوع إلى الإسلام، سالكًا في ذلك أقصى درجات التعاون والتعايش والحوار والتلطف. وبمنهجه الرشيد استطاع أن يتفوّق في العمل المدني الذي تنبه إلى أهميته منذ الستينات، للتعبير عن آرائه وأفكاره، حتى آمن بفكره ومنهجه تيار واسع من المؤيدين في كل أرجاء العالم. بل استطاع هذا الرجل أن يكسب احترام فئات عريضة من المفكرين ذوي التوجهات الدينية والفلسفية والفكرية والحقوقية، داخل المنظومة الإسلامية وخارجها.

hiramagazine.com

وإني أزعم أن الرجل لو كان يطمع في السلطة السياسية -كما يروج البعض اليوم- لما استطاع أن ينافسه فيها أحد منذ زمن وإلى اليوم، الشيء الذي يؤكد صدقه في توجهاته الدعوية الإصلاحية، وبُعد نظره في أهدافه الإنسانية. والمقام لا يسمح في هذه العجالة بالتفصيل في رأي ثلة كبيرة من العلماء المعتد برأيهم -من داخل الأمة وخارجها- حول إعجابهم بهذا الرجل العبقري، وكلامهم فيه، وأوصافهم له بالعلم والفقه والخلق والولاية والإبداع والتجديد، من أمثال السادة العلماء: وحيد الدين خان، وسلمان العودة، وعائض القرني، والمرحوم فريد الأنصاري، ومحمد عمارة، وغيرهم كثير.

وإذا كان خير الكلام كلام الله تعالى، فقد دبج كتابه العظيم بعدد من القصص والأحداث لهداية العامة وتوجيه الخاصة من الناس. فما أشبه اليوم بالبارحة، حين قال الله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(المائدة:٢٧). قال الشهيد سيد قطب في ظلاله: "هذه القصة تُقدم نموذجًا لطبيعة الشر والعدوان، ونموذجًا كذلك من العدوان الصارخ الذي لا مبرّر له، كما تُقدم نموذجًا لطبيعة الخير والسماحة، ونموذجًا كذلك من الطيبة والوداعة، وتقفهما وجهًا لوجه كل منهما يتصرف وفق طبيعته. وترسم الجريمة المنكرة التي يرتكبها الشر والعدوان الصارخ الذي يثير الضمير، ويثير الشعور بالحاجة إلى شريعة نافذة بالقصاص العادل، تكف النموذج الشرير المعتدي عن الاعتداء، وتخوفه وتردعه بالتخويف عن الإقدام على الجريمة، فإذا ارتكبها -على الرغم من ذلك- وجد الجزاء العادل المكافئ للفعلة المنكرة، كما تصون النموذج الطيب الخير وتحفظ حرمة دمه، فمثل هذه النفوس يجب أن تعيش، وأن تصان، وأن تأمن في ظل شريعة عادلة رادعة".

نعم قد يكون ظلم الخصوم أو المخالفين في التاريخ أو العقيدة أو الدين أو الوطن، مفهومًا أو مبررًا لممارساتهم الظالمة، لكن أن تحصل الاتهامات المجانية

الذي عنده أدنى معرفة بمنهج الأستاذ فتح الله كولن، يعلم أنه يدعو -وفي سلمية منقطعة النظير- إلى أن إصلاح أوضاع الأمة لا تستقيم إلا بالرجوع إلى الإسلام، سالكًا في ذلك أقصى درجات التعاون والتعايش والحوار والتلطف.

حراء

والقذف والتشهير ممن يعدون من ذوي القربى، فهذا ما يجعل الجرح أكبر إيلامًا. ومثل هذا الصنف من الناس ما داموا مسلمين، كمثل القابض على الجمر أيضًا، فهم ولو نجحوا في تعليل ظلمهم أو تبرير فِعالهم، لا شك أن ضمائرهم ستستيقظ في لحظة من اللحظات أو يوم من الأيام فيقول قائلهم: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾(المائدة:٣١). ومهما حصل، لا شك أنهم سيعانون من تبعات ذلك، في العاجل أو الآجل من الزمن.

ورحم الله طرفة بن العبد حين أُحضر أمام ابن عمه -الملك عمرو بن هند- وقد عزم على معاقبته فقال:

وظلْم ذوي القربى أشد مضاضة
على المرء من وقْع السهام المهنّد

إن من العلماء من يكون في مرتبة الولاية التي كثيرًا ما ذكر الله تعالى مواصفاتها، وكرّم أهلها وقرّبهم وأثنى عليهم بما هم أهل له عنده ﷻ. وهذا يدفعنا للتأمل مليًّا في ما تتعرض له كوكبة من العلماء الأجلاء من أعيان أهل العلم في عصرنا من التطاول والإهانة والقذف والافتراء.

فنقول: إذا كان لجلّ المخلوقات تحت الشمس في زمن العولمة يوم أو مناسبة للوفاء والتكريم والاعتراف بالجميل -من الرجال والنساء والأطفال والأبطال والفنّانين وحتى الحيوانات- فما هو نصيب العلماء -بله الأولياء- من هذا التكريم البشري المزعوم؟

إن التطاول والتجاوزات التي تطال العلماء في هذا العصر، بلغت مبلغًا مخيفًا من التهميش والتضييق، إلى التحرش والحصار والمطاردة والتهديد الذي يتم على مرأى ومسمع من كل العالمين. نعم إن مآسي الناس في عالم اليوم تزاحمت، لكن مأساة العلماء أعظم لأنهم ورثة الأنبياء، فما بالك بالأولياء!؟ لكن وبالرغم من كل

hiramagazine.com

ما يلاقونه، فهم المنافحون عن إرث النبوة وهديها حتى يبلغ أقصى مدى يمكن بلوغه. وهم حريصون على تبليغ الحق، قابضون على أسبابه كالقابض على الجمر الذي لا يسلم من الأذى مهما حاول تجنبه.

وإذا كان أولياء الله تعالى قومًا مصطفين بمحبّته فآثرهم على الناس بفضله ورحمته، لا لشيء إلا لأنهم آثروا حياة الخلود -التي وعد الله بها عباده الصالحين- على حياة الترف والشهوات التي لم يصبر على التمتع بها كثير من المترفين. أولئك الأعلام هم الذين وُفّقوا عبر التاريخ إلى تلمس أسباب السعادة الحقيقية والنجاح المعتبر، من خلال الاجتهاد في البحث عن رضى الله تعالى، والتفاني في بذل كل شيء من أجل الآخرين في هذه الحياة الفانية، دون أن يأخذوا منها شيئًا.

من أجل ذلك فتَح الله عليهم بالقبول، وجعل لهم حظوة بين الناس تغيظ المُقصرين والمخالفين والمترفين، الذين يلهثون وراء هذه الحظوة بكل ما يملكون من وسائل مشروعة وغير مشروعة، لكنهم -وعبر التاريخ- إنما يَجْرون وراء السراب. وقد استوقفني حديث قدسي يهزّ كياني كلما تأمّلته، وهو الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًّا فقدْ آذنتُه بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضْتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصرَه الذي يُبصر به، ويدَه التي يَبطش بها، ورجلَه التي يَمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذنّه".

هذا الحديث أخرجه البخاري، وخرجه الإمام أحمد بمعناه، وخرجه الطبراني عن أبي أمامة وغيره. وقد قيل إنه أشرف حديث روي في ذكر أولياء الله تعالى. فقوله ﷺ: "من عادى لي وليًّا، فقد آذنتُه بالحرْب" يعني: فقد أعلمتُه بأني محارب له، حيث كان محاربًا لي بمعاداة أوليائي. ويدعم هذا المعنى الزيادة التي وردت في حديث عائشة ﷺ: "فقد استحل مُحاربتي"، وزيادة أبي أمامة وغيره في رواية أخرى: "فقد بارزني بالمحاربة". ولا نملك في مثل هذا المقام إلا الإشفاق على من تورّط في معاداة العلماء وأولياء الله تعالى، لأنهم من جهة إخواننا في الدين، ومن جهة ثانية فهُم قد يفتحون أبوابًا لا يملكون مفاتيح إغلاقها، ويلِجون حربًا لا قِبَل لهم بجُنودها.

والنتيجة أن أولياء الله تجب موالاتهم وتُحرم معاداتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۞ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾(المائدة:٥٥-٥٦).

ولأن الخواص من المؤمنين ألجموا أهواءهم بلجام الحق والصدق مع الله تعالى، وجاهدوا أنفسهم، ونأوْا بها عن ما ينغمس فيه عموم الناس، فقد استحقوا من الله تعالى العون والوقاية من مزالق الأهواء التي أهلكت عددًا من أولي الأمر من الخواص فضلاً عن العوام عبر التاريخ، وإن سنة الله في فتنة الذين آمنوا ظاهرة على مر الزمان، قال الله تعالى: ﴿الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾(العنكبوت:١-٢). وإن صور تلك الفتنة والابتلاء تعدّدت وتنوّعت حتى غابت عن كثير من الناس؛ فقد تكون بالخير وتكون بالشر كما بالشدة والرخاء، وقد تصدر عن الخصوم كما ترد من الأدعياء بل من الأقرباء. ومن ثم بشّرهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(يونس:٦٢).

إذا كان التواطؤ والعدوان سنّة الله تعالى في ابتلاء المؤمنين، فإن خاتم الأنبياء ﷺ أخبرنا في ما أخرجه ابن ماجة وصحّحه عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: قلتُ يا رسول الله أيّ الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه". فهنيئًا للذين حُشروا في صفّ الأنبياء، والذين تأسّوا بهم وساروا على دربهم.. هنيئًا.. هنيئًا.. هنيئًا. ■

(*) جامعة أبو شعيب الدكالي، مدينة الجديدة / المغرب.

hiramagazine.com

د. بركات محمد مراد*

الذكاء العاطفي وبناء شخصية الطفل

يرى علماء النفس المحدثون، أن هناك طريقتين مختلفتين اختلافًا جوهريًّا للمعرفة تتفاعلان لبناء حياتنا العقلية؛ طريقة العقل المنطقي، وهي طريقة فهم ما ندركه تمام الإدراك، والواضح وضوحًا كاملاً في وعينا. وهناك نظام آخر للمعرفة قوي ومندفع، وأحيانًا غير منطقي، هذا النظام هو "العقل العاطفي".

ويقترب هذا التقسيم الثنائي -إلى عاطفي ومنطقي- من التمييز الشائع بين العقل والقلب. فحين يعرف الإنسان بقلبه أن هذا الشيء صحيح، فهذا أمر يختلف عن الاقتناع، وهو نوع من المعرفة أعمق من اليقين وأكثر من التفكير فيه بالعقل المنطقي. فهناك علاقة طردية بين سيطرة العواطف وسيطرة المنطق على العقل، فكلما كانت المشاعر أكثر حدة، زادت أهمية العقل العاطفي وأصبح العقل المنطقي أقل فاعلية.

هذان العقلان (العاطفي والمنطقي) يقومان معًا في تناغم دقيق دائمًا بتضافر نطاقيهما المختلفين جدًّا في المعرفة بقيادة حياتنا. ذلك لأن هناك توازنًا قائمًا بين العقل العاطفي والعقل المنطقي؛ العاطفة تغذي وتزود عمليات العقل المنطقي بالمعلومات، بينما يعمل العقل المنطقي على تنقية مدخلات العقل

العاطفي، وأحيانًا يعترض عليها. ومع ذلك يظل كل من العقلين ملَكتين شبه مستقلتين كل منهما يعكس عملية متميزة، لكنهما مترابطتان في دوائر المخ العصبية.

ويخبرنا المحلل النفسي "دانييل جولمان" في كتابه "الذكاء العاطفي"، أن هناك بين العقلين -في كثير من اللحظات أو في معظمهما- تنسيقًا دقيقًا رائعًا؛ فالمشاعر ضرورية للتفكير، لكن إذا تجاوزت المشاعر ذروة التوازن، عندئذ يسود الموقف العقلي العاطفي، ويكتسح العقل المنطقي.

• **الذكاء العاطفي**: انتهى العلماء المختصون في هذا المجال، إلى أن الذكاء الأكاديمي، لا يعدّ المرء في الواقع لما يجري في الحياة من أحداث مليئة بالاضطرابات، أو لما تتضمنه من فرص، ومن ثم فإن أي ارتفاع في مستوى معامل الذكاء، لا يضمن الرفاهية، أو المركز المتميز، أو السعادة في الحياة، ذلك أن مؤسساتنا التعليمية وثقافتنا، تقف في ثبات عند القدرات الأكاديمية متجاهلة الذكاء العاطفي الذي هو مجموعة من السمات، قد يسميها البعض "صفات شخصية"، ولها أهميتها البالغة في مصيرنا كأفراد.

إن الإسهام الوحيد للتعلم بالنسبة لنمو الطفل، هو مساعدته على التوجه إلى مجال يناسب مواهبه، ويشعر فيه بالإشباع والتمكن. لقد افتقدنا تمامًا هذه الرؤية، وبدلاً منها ما زلنا نُخضع كل فرد إلى نوع من الدراسة؛ إذا نجح فيها لن يكون -في أحد الأحوال- أكثر من أستاذ في إحدى المدارس أو الجامعات.

كما أننا نكتفي بتقويم كل فرد، وفقًا لما حققه في مسيرة حياته بهذا المستوى المحدود من النجاح. ثمة واجب علينا أن نقلل من الوقت الذي ننفقه في تحديد مستويات الأطفال، ونبذل وقتًا أطول في مساعدتهم على تحديد قدراتهم ومواهبهم الفطرية، ونقوم برعايتها وتنميتها، وهناك المئات من سبل النجاح، وعديد من القدرات المختلفة التي ستساعدنا على تحقيق ذلك.

وقد جاء العالم "جاردنر"، وبيّن أن أساليب التفكير قديمة فيما يخص الذكاء، وقد انتهى عصرها الذي كان يصنف الناس على أنهم إما أذكياء وإما عكس ذلك؛ حيث تقوم الاختبارات على فكرة اختبار نوع واحد من القدرات التي تحدد مستقبلك. وقد أثبت "جاردنر" -في كتابه "أطر العقل" (Frames of Mind) الذي صدر عام ١٩٨٣- دحْض فكرة "معامل الذكاء"، معتبرًا أن هناك أنواعًا كثيرة متعددة من الذكاء. وقد توسع "جاردنر" وزملاؤه الباحثون، في قائمة أنواع الذكاء، حتى امتدت لعشرين نوعًا منها. ولا شك أن هذه الرؤية التعددية للذكاء، تقدم صورة أكثر ثراء لقدرة الطفل، والمواهب لدى الأطفال، على أساس مقياس "ستانفورد بنيت"، والذي كان يومًا المقياس الذهبي لاختبارات معامل الذكاء.

وأخذ تفكير "جاردنر" حول تعدد أنواع الذكاء يتطور مع الوقت، وبعد عشر سنوات من نشر نظريته أول مرة، لخص وجهة نظره في الذكاء على النحو التالي: "إن الذكاء في العلاقات المتبادلة بين الناس، هو القدرة على فهم الآخرين وما الذي يحركهم، وكيف يمارسون عملهم، وكيف نتعاون معهم... والواقع أن الناجحين من العاملين بالتجارة، والسياسيين، والمدرسين، والأطباء، والزعماء الدينيين، يتمتعون في الغالب بدرجات عالية من الذكاء في مجال العلاقات العامة. فالذكاء الخاص بين الناس، هو القدرة على تبادل العلاقات فيما بينهم التي تتحول إلى قدرة داخلية. إنها المقدرة على تشكيل نموذج محدد وحقيقي للذات، لكي يتمكن من التأثير بفاعلية في الحياة".

• **الوعي الذاتي**: ويرى كثير من الباحثين، أن كل هذا يندرج تحت مفهوم "الوعي الذاتي"، الذي أصبح مفهومًا ضروريًّا بالنسبة للآباء في معرفتهم بدواعثهم وانفعالاتهم وإمكاناتهم النفسية والعقلية، وكذلك بالنسبة للأطفال أنفسهم، الذين نقوم على مساعدتهم في معرفة وتقويم قدراتهم الذاتية، وإمكاناتهم الفكرية والعاطفية.

و"الوعي بالذات" بإيجاز: "أن نكون مدركين لحالتنا النفسية وتفكيرنا بالنسبة لهذه الحالة المزاجية نفسها" وفقًا لقول "جون ماير" (John Mager) -العالم السيكولوجي بجامعة هابتشير- الذي وضع نظرية الذكاء العاطفي مع "بيتر سالوفي" بجامعة ييل. ويمكن أن يكون الوعي

hiramagazine.com

بالذات انتباهًا للحالات النفسية الداخلية، لكنه غير متفاعل أو قادر على تكوين رأي. لكن "ماير"، يرى أن هذه الحساسية قد تكون أيضًا أقل صرامة، لأن الأفكار المعهودة التي تعبر عن الوعي الذاتي بالانفعالات، تتضمن أفكارًا مثل "ينبغي أن لا أشعر بهذه الطريقة"، أو "أنا أفكر في أشياء جميلة لكي أشعر بالبهجة"، أو "لا تفكر في هذا الأمر" وهي الفكرة التي تطرأ على الذهن كرد فعل لأمر محبط للغاية.

ولذلك يقول "دانييل جولمان" في كتابه "الذكاء العاطفي": "وعلى الرغم من التمييز المنطقي بين أن نكون مدركين لمشاعرنا، والقيام بالأفعال من أجل الأهداف العملية كلها، يسيران عادة جنبًا إلى جنب ويدًا بيد. ذلك لأن مجرد إدراكنا أن المزاج سيء، فهذا معناه الرغبة في التخلص منه. والتعرف على الحالة النفسية شيء متميز عما نبذله من جهود، حتى لا نقوم بفعلٍ ما بدافع انفعالي. فعندما نقول لطفل يدفعه غضبه لضرب زميله في اللعب: "كفى"، نستطيع بهذه الصيحة أن نوقف الضرب، لكن الغضب يظل يمور بداخله، وتظل أفكار الطفل ثابتة على زناد الغضب وهو يقول: "لقد سرق لعبتي"، ويستمر الشعور بالغضب دون تهدئته وتخفيفه". فالوعي النفسي، تأثيره في المشاعر أكثر قوة، لأن الإنسان الغاضب إذا أدرك أن ما يشعر به وهو الغضب، فهذا يوفر له حرية كبيرة ليختار عدم إطاعة هذا الشعور، بل أيضًا خيار محاولة التخلص من قبضة هذا الغضب.

إذن، العالم الداخلي للطفل منذ ميلاده، ليس صفحة بيضاء يمكن أن نملأها بما نراه مناسبًا؛ فالطفل يولد ولديه طاقات ونزوات، وهي تتفاعل فيما بينها وتتصارع، وتتدامج وفق برنامج جامد ومحدد سلفًا بشكل مقنن وراثيًّا، وصولاً إلى مرحلة النضج. بل هو أقرب ما يكون إلى الإمكانية التي يجب أن تُبنى متخذة شكل المشروع الوجودي، وقد تنجح عملية البناء هذه، أو تتعثر بدرجات متفاوتة.

فالعالم الداخلي للطفل، لا هو ساكن ولا هو متماسك ومنسجم، بل هو الأقرب إلى الواقع، وخلال

العالم الداخلي للطفل منذ ميلاده، ليس صفحة بيضاء يمكن أن نملأها بما نراه مناسبًا؛ فالطفل يولد ولديه طاقات ونزوات، وهي تتفاعل فيما بينها وتتصارع، وتتدامج وفق برنامج جامد ومحدد سلفًا بشكل مقنن وراثيًّا، وصولاً إلى مرحلة النضج.

نمو شخصيته بتكامل إمكاناتها وقواها، يمر الطفل بسلسلة من الأزمات التي يتعين الخروج منها. هناك إذن ورشة شغل لترتيب البيت من الداخل، وصولاً إلى التماسك والانسجام وتنمية الإمكانات الداخلية، كي تتآلف العواطف مع العقل وتغذي بعضها بعضًا. وهناك شغل على العواطف والانفعالات لتحرير الطاقات الذاتية وإطلاقها، وصولاً إلى اكتساب الثقة بالنفس. ويشكل مجابهة الصعاب الداخلية مهمة لا مندوحة عنها، حتى إنها لتكاد تصبح جوهر الوجود الإنساني.

ولذلك يقول الدكتور مصطفى حجازي: "فمنذ الشهور الأولى، تطرح على الطفل مهام حاسمة لتقرير مستقبل وجوده الإنساني، أبرزها الدخول في العلاقات الإنسانية، وبناء أسس الهوية النفسية، وأسس السيطرة على النزوات. تتم المراحل الأولى لهذه المهام قبل سن السنتين، وحتى سن الثالثة يتعين قيام نظام متوازن من التماهيات مع الأم والأب يسمح للطفل ببناء هويته النفسية الجنسية (هوية الصبي أو البنت).

ويحدث ذلك خلال ترسيخ الروابط العاطفية واستقرارها وسلامتها. ثم تطرح عليه واحدة من أخطر المهام؛ وهي تمثل القانون ذاتيًّا مما يؤسس لنظام الضوابط الذاتية والنجاح في هذه المهام جميعًا، هو الذي يُرسي دعائم النمو النفسي العاطفي والعلائقي، وصولاً إلى الاستقلالية الشخصية.

ويسير تعزيز هذا البناء قدمًا ما بين سنّي ٣-٦ سنوات، فيكتمل تكوين الهوية النفسية، وتبرز الـ"أنا" والوعي بالذات، وما يصاحبها من أزمة معارضته للكبار واستعراض لهذه الذات، كما تنتظم أركان الشخصية. ولا بد من انتظار أواسط الطفولة المتأخرة (أي سن ٧ إلى ٨ سنوات) حتى تصفى الأزمات الداخلية،

hiramagazine.com

ويتم التنسيق والتكامل وتقيض السيطرة للذات، كما تُصفى معها مسألة الاعتماد الطفلي على العلاقات مع الوالدين. وهذا ما يسمح لطفل ذي هوية طفلية متماسكة بالاستقلال، والدخول في العلاقات الاجتماعية، والانتماء الاجتماعي من ناحية، والتحول في اهتماماته من العالم الذاتي الداخلي إلى العالم الموضوعي من ناحية ثانية.

لا تمر هذه العمليات في مختلف مراحلها، بدون أزمات يفرضها التناقض بين النزوات واصطراع الرغبات داخليًا، وقيود وإحباطات العالم الخارجي من الناحية الأخرى. وكثير من هذه القضايا والأزمات التي يعيشها الطفل، لا تُصفى دفعة واحدة، وإنما تستمر بصورة مختلفة، وتتخذ أشكالاً وديناميات متنوعة تبعًا لكل مرحلة من مراحل النمو.

وفي كل مرة يحرز الطفل بعض التقدم في مسيرته التي قد تتعرض للتعثر والانتكاس، ولكنه لا يتخلى عن المحاولة فيعاود الكرة ويستأنف تصفية المشاكل والسعي إلى التكامل في أركان شخصيته. ومن خلال النهاية الطيبة والعودة المظفرة والانتصار، والتقدم والنمو عبر كثير من الوسائط الثقافية -كاللعب، والرسم، والقصص المكتوبة، والمسرح، والقراءة، ومشاهدة المسلسلات من الدراما، والخيال المصور في القصص التعليمية والخيالية- تتكامل شخصيته وتنمو ذاته، وتتحول فيه قوى التهديد والتدمير، لتغلب عليها قوى البناء واللقاء الإنساني، مما يعني تصفية للحسابات على الجبهة الداخلية، والسيطرة على العالم الذاتي.

• **التوافق النفسي**: إننا بحاجة إلى من يُشعرنا بأن الحب الذي طالت هجرته، وتاهت في مهب الريح أخباره، لا بد أن يعود أقوى مما كان؛ لأنه وصفة العلاج الوحيدة التي ستمنحنا الأمن العاطفي والاستقرار النفسي. ومن الطبيعي أننا لن نجد هذه الوصفة العظيمة على أرفف الصيدليات، ولا في حوانيت العطارين.

إن الأسئلة التي تغوص في أعماقنا متنوعة وكثيرة، ومعظمها قد تشرق في ظلام تلك الأعماق الجائعة اللاهثة المريضة، ليطفو همها على لسان الحقيقة الصارخة. من المسؤول الأول عن هجرة الحب من مهده الخصيب، ليشعل في مكانه نار الحرمان لهب أسود، وقودها العصيان والتدمير والموت؟ من المسؤول عن وسطية إشباع الغرائز وتوجيهها وتنظيمها ونموها في محاضن تربوية سليمة، حتى لا تنحرف عن مسارها القديم، والجوانب الإنسانية التي قد يصيبها العطن بغياب الدفء العاطفي؟

ومن هنا نفهم الأهمية البالغة التي يوليها القرآن الكريم في تهذيب العاطفة كونها تشكل مساحة واسعة في نفس الطفل الناشئ؛ فهي التي تُكوّن نفسه، وتبني شخصيته، فإن أخذها بشكل متوازن كان إنسانًا سويًّا في مستقبله وفي حياته كلها، وإن أخذها بغير ذلك -سواء بالزيادة أو النقصان- تشكلت لديه عقدًا لا تُحمد عقباها.

ومهمة التربية الإسلامية هنا، أو التربية السوية أيًّا كان مصدرها، هي السمو بتلك العاطفة الإنسانية ووضعها في مسارها الصحيح، ومن ثم توجيهها إلى أهم عاطفة وهي عاطفة محبة الله ﷻ ورسوله ﷺ، ثم عاطفة محبة الوالدين والإخوة وذوي القربى، وعاطفة الحب في الله، إلى غير ذلك من العواطف الإنسانية... والتي تتعدى بتأثيرها إلى كل الإنسانية، كالعدل والرحمة والإيثار والتنافس في بذل الخير ورفع السوء والضُر.

ولا ننسى هنا، أن العلاقة بين الأفراد في المجتمع، تشكل العامل الأهم في تحقيق التقارب النفسي والاندماج العاطفي الودي، والذي بدوره يساعد على الارتقاء الاجتماعي والثقافي والنفسي بالمجتمع، خاصة وأن الفرد يصبح أكثر التصاقًا بالآخرين، من خلال تبادل الأدوار، ونكران الذات، وسيادة لغة الحوار... فينشأ عن ذلك كله، الحب المغلف بالعطف، والحنان والاحترام المتبادل، والمشاعر الحساسة والمشاركة الوجدانية. ولذلك يعتبر من أهم العوامل التي قد تكون سببًا في الحرمان العاطفي، عدم فتح قنوات للتحاور مع المقربين لنا وإهمالهم، وعدم مراعاة مشاعرهم وتلبية طلباتهم وسماع أصواتهم. ولذلك لا بد هنا من تبني إستراتيجية تربوية ناجحة. ■

(*) رئيس قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

hiramagazine.com

د. سعيد شبار*

منظومة القيم في القرآن والبناء التكاملي لوظائف الأسرة

تبقى القوة الإجرائية والتفاعلية لأي مفهوم من قوة المرجعية التي يستمد منها المفهوم، ومن مدى تماسك ونسقية مكونات هذه المرجعية من حيث تكامل وظائفها وتحقق مقاصدها، في جلب النفع والسعادة والمصلحة للإنسان، ودفع الضرر والشقاء والمفسدة عنه.

وليس ثمة مفهوم يستند إلى جهد بشري موسوم بالنسبية والقصور، بقادر على النهوض بكل تلك المهام، لإسعاد الإنسان في حياته الدنيا أو العاجلة، بله إسعاده في حياته الآخرة أو الآجلة. لذلك تبقى المرجعية الدينية في ثقافتنا الإسلامية -باعتبارها وحيًا مطلقًا مستوعبًا للزمان ومؤطرًا للإنسان- أولى من غيرها في هذا السياق وفي كل سياق.

من هنا تأتي أهمية هذه المقالة، أي في إحالتها لمفهوم الأسرة على القرآن وليس التاريخ، على المطلق الكلي وليس على النسبي الجزئي. ولو أن كل مفاهيمنا المكونة لثقافتنا وعلومنا ومعارفنا وآدابنا أعيد بناؤها على هذا الأصل، لكان حالنا غير هذا الحال قطعًا. إن من سنن

القيم ضرورة وجودية تؤسس للحالة السواء النموذجية أو المثالية المعيارية في الأسرة، انطلاقًا من بناء كل فرد فيها بما يؤهله للأداء الجماعي. فلا يكون مصلحًا مَن لم يكن صالحًا، ولا مقيمًا للعدل والإنصاف مع غيره من لم يقم ذلك مع نفسه، ولا مؤمنًا بحرية غيره من لم يدرك حدود حريته.

حراء

الله تعالى في خلقه والتي فطر عليها مخلوقاته؛ الأداء والإنجاز الجماعي للكائنات حية أو جامدة، عاقلة أو غير عاقلة، يتضح ذلك من أبسط تأمل في آيات الأنفس والآفاق. وهذا الأداء والإنجاز الجماعي، هو ما يمكن تسميته بالعمل "المنظومي" الذي تتداخل وتتكامل فيه الوظائف العامة والخاصة.

وهذا الأمر، كما يحدث في البنى والأنساق الاجتماعية، يحدث كذلك في البنى والأنساق الفكرية والثقافية، والعلمية والمعرفية. وهو الذي نسعى إلى بيان جزء منه في مجال القيم القرآنية عمومًا، وتلك المتعلقة بالأسرة خصوصًا.

١- منطق الاشتغال المنظومي للقيم في القرآن

بناء على ما تقدم، فإن القيم والمفاهيم في القرآن عمومًا، تبقى منظومة تشتغل وفق منطق ونظام خاص هو من سنن الله الدينية الشرعية المعادلة أو المكافئة لسننه الكونية القدرية. بمعنى أكثر وضوحًا، إن آيات الله تعالى في كتابه المسطور، معادلة من حيث نظامها واتساقها، موقعًا ودلالات لآيات الله الكونية القدرية في مواقعها في الفضاء الكوني أو الكتاب المنظور، كما قال الله تعالى: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۞ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۞ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾(الواقعة:٧٥-٧٨). فنجد لكل مفهوم قيمة في القرآن الكريم؛ حركة أو وظيفة ذاتية لا يقوم بها إلا هو، وحركة أو وظيفة تشاركية أو تفاعلية يقوم بها مع غيره في سياق تكاملي للوظائف. والحركتان معًا -الذاتية والتفاعلية- تتمان في نفس الوقت بشكل نسقي متواز. وهو عمل أشبه ما يكون بأعضاء جسد الإنسان، أو قطع غيار محرك ما؛ فكل عضو في الجسد، يقوم بوظيفة خاصة لا يمكن أن يقوم بها غيره. وتأمل هنا عمل القلب أو الكبد أو الرئة أو غيرها، ثم وهو يقوم بهذه الوظيفة، لا يستطيع أن يقوم بها مفردًا مستقلاً، فلا بد له من شبكة علاقات تفاعلية مع الأعضاء الأخرى إمدادًا واستمدادًا. وتأمل قطعة محرك؛ أيًّا كان حجمًا ومجالاً، فلا قطعة تنوب عن غيرها، ولا هي بقادرة على الاشتغال دون دعم وسند غيرها، بل تلَف قطعة واحدة ضمن عشرات أو مئات القطع، يعطّل عمل المحرك أو يضعفه إضعافًا بحسب دورها المحوري الأساسي أو الثانوي التكميلي.

إن اشتغال القيم والمفاهيم عمومًا في القرآن الكريم هو أدق وأشمل من الصور التقريبية التي أشرنا إليها، حتى قيل إنه كلمة، وبنية، ونسق، ونظام ...إلخ. فأصل التوحيد أو الإيمان -مثلاً- أصل مهيمن، ولنقل بتعبير بعض الكتاب: قيمة عليا حاكمة. المفروض أن يكون له حضور في سائر المفاهيم الأخرى، يزودها بالمعنى ويحدد وجهتها وقبلتها، ويسدد كثيرًا من آليات اشتغالها. لكن للأسف، ضمر هذا الأصل وانحصرت معانيه ودلالاته في التداول التاريخي، حتى لم يبق لها حضور في مجالات العلم والمعرفة والمجتمع فلحقها من الآفات ما لحقها. ومثلُ التوحيد الاستخلاف والتكريم والعدل والتزكية والحرية والإخلاص والإحسان وغيرها، من حيث استقلالها بمعنى وتكاملها من خلاله مع سائر المعاني الأخرى.

ولهذا كان النظر الجزئي المفرد لبعض المفاهيم -بمعزل عن شبكة علاقاتها وسياقاتها- من أخطر الآفات التي أصابت كثيرًا من الدراسات وهي تحاول إبراز المنظور الإسلامي لقضية ما، كقضية الأسرة أو المرأة أو الإرث أو المساواة، وكثير من القضايا الاجتماعية والسياسية وغيرها. وهذا المنهج هو الذي عابه القرآن الكريم نفسه على ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾(الحجر:٩١)، أي أجزاء وقطعًا، أو أعضاء وفرقًا. وإن كان السياق واردًا في الذين يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه، فإنه -منهجيًّا- عام على كل عمل انتقائي يخل بشرط الوحدة البنائية والنسقية التكاملية بين سائر مكوناته.

٢- الأسرة والتكامل الوظيفي للقيم

إن الأسرة وإن لم ترد لفظًا في القرآن الكريم، لكنها المرادة عمومًا بألفاظ أخرى؛ كالآل والأهل، وأحيانًا العشيرة إذا اتسعت الدائرة قليلاً. وقبل النظر إليها وحدة مستقلة، لا بد من النظر إلى موقعها ضمن القيم الكلية المؤطرة؛ فهناك شبكة قيمية مؤطرة ولاحمة بين هذه الدوائر، تحفظها من التفكك والنزاع، وتقوم السلوك والأفعال والأقوال، وتحفظ العدل والأخوة والمساواة، وما إلى ذلك.

وبما أن الأسرة -في مبتدأ الأمر ومنتهاه- رجال ونساء وأبناء وعلاقات، فمفهوم الاستخلاف يتوجه على هؤلاء جميعًا، ومفهوم التكريم يشملهم جميعًا، وخطاب الإيمان والتكليف يعمّهم جميعًا كذلك، والعدل والإنصاف والمساواة والتقوى والورع متوجهة إليهم جميعًا.

هذا فضلاً عن قيم أخرى ذات طبيعة تكافلية تضامنية، تقوي وتعضد من وشائج الأخوة والعلاقات بين الناس عمومًا، والأزواج فيما بينهم والآباء والأبناء؛ كالمودة والرحمة والبر والإحسان والإيثار والإخلاص وما إليها.

فمفهوم الأسرة محوط بشبكة قيمية داعمة مؤطرة وموجهة، والفرد في الأسرة، والأسرة في المجتمع، دوائر تراتبية منفتحة على بعضها، يكون أدناها رافدًا لأعلاها، وأعلاها خادمًا ومحافظًا على أدناها، وفي كل مستوى من هذه المستويات تتحدد وظائف ومسؤوليات، وتترتب حقوق وواجبات. فمفهوم الأسرة قائم أساسًا على فلسفة التكامل الوظيفي المراعي للخصوصيات والأدوار، تؤدي فيه كل دائرة وظيفتها الخاصة الذاتية، ووظيفتها العامة التشاركية والتفاعلية.

ولهذا فعدم إدراك الفرد -رجلاً أو امرأة- لوظائفه الخاصة كذات فاعلة، ولوظائفه العامة كذات متفاعلة، وللقيم المؤطرة لهذا المستوى وذاك، يوقع -لا محالة- في التنازع وتترتب على ذلك مطالب تؤسس للخلاف والنزاع أكثر من الوئام والوفاق كما سنبين لاحقًا. أي تنتهي إلى نقيض المراد والقصد من القيم ذاتها، المرتبطة بالإنسان كذات وكيان، أو بالأسرة كوظيفة.

ليس ثمة مفهوم يستند إلى جهد بشري موسوم بالنسبية والقصور، بقادر على النهوض بكل تلك المهام لإسعاد الإنسان في حياته الدنيا أو العاجلة، بله إسعاده في حياته الآخرة أو الآجلة. لذلك تبقى المرجعية الدينية في ثقافتنا الإسلامية، أولى من غيرها في كل سياق.

حراء

فكل مفهوم قيمة إذن، لبنة أساسية في هذا الجدار، ويمكن الحديث عن قيم هي أصول وكليات، وعن قيم هي فروع متممة على نحو ما تقدم، كما يمكن الحديث في تصنيفات أخرى للقيم، عن قيم روحية نفسية، وعن قيم سلوكية تربوية، وعن قيم مادية وأخرى معنوية.

وتبقى القيم عمومًا، ضرورة وجودية تؤسس للحالة السواء النموذجية أو المثالية المعيارية في الأسرة، انطلاقًا من بناء كل فرد فيها بما يؤهله للأداء الجماعي، فاللبنة الهشة في الجدار قد تكون سببًا في سقوطه، أو على الأقل منفذًا لعلل وآفات كثيرة. فلا يكون مصلحًا من لم يكن صالحًا، ولا مقيمًا للعدل والإنصاف مع غيره من لم يقم ذلك مع نفسه، ولا مؤمنًا بحرية غيره من لم يدرك حدود حريته، ولا بحق وواجب غيره من لم يدرك حق وواجب نفسه.

فالقيم تؤسس للكينونة المبررة للوجود، وللمعنى والغاية والقصد من الإيجاد، وضمن هذا الفضاء تتأسس وتتحدد الوظائف والواجبات والمسؤوليات. ومنظومة القيم من شأنها أن تدرأ آفات التمركز والتحيز والنزاع والصدام، التي هيمنت الآن على كثير من النماذج الأسرية، بل تحولت إلى نظريات واتجاهات فكرية كما في كثير من النماذج التي تقدمها دول غربية اليوم للأسف.

٣- درء آفات ومخاطر التفكك القيمي

المراد أولاً بالتفكك القيمي، هو ضرب البنية النسقية الكلية، والتكامل الوظيفي بين مكونات الأسرة، بحيث تنفرط النواظم الجامعة والموحدة والقيم اللاحمة بينها، ويحل محلها اعتبار الفرد والذات أكثر من الجماعة، فتنشأ المطالب الخاصة في الدوائر الضيقة دون اعتبار

hiramagazine.com

للمصلحة العامة، بل قد يتضخم الأمر إلى حد التمرد عليها وتجاوزها كما هو الحاصل في كثير من النماذج الغربية. ولهذا الأمر -طبعًا- ما يبرره في سياق تطور الحضارة الغربية التي انتقلت من تطرف لاهوتي خرافي كان يحكم باسم الدين، إلى تطرف مادي علماني يحكم باسم الدنيا فحسب، أي باستبعاد كلي أو جزئي لقيم الدين وتعاليمه، حيث تم تنصيب آلهة جديدة، كالعقل والعلم والطبيعة والحس والتجربة.

لتعرف بذلك هذه الحضارة تطورًا إلى ما هو أخطر بعد عصر النهضة والأنوار إلى الحداثة وما بعدها، حيث وقع التمرد على كل شيء، بما في ذلك تلك المبادئ الأصول والأسس، التي بني عليها الانتقال من مرحلة اللاهوت والخرافة إلى مرحلة العلم والدولة، ثم إلى العدمية والعبثية واللامعنى والثورة والتمرد على كل شيء. وبتعبير بعض النقاد؛ الانتقال من الحالة الصلبة التي تستند إلى مبادئ كلية كالعلم والعقل والمادة، إلى الحالة السائلة التي لا يمكن الإمساك بها على أساس معين؛ حالة اللامعنى والمتعة والاستهلاك، والإنتاج، والهيمنة والتوسع، التي هيمنت على العلوم والمعارف والسياسات المختلفة.

في هذا السياق وعلى مستوى البنيات الاجتماعية، وقع تضخيم كبير للذات والـ"أنا"، والتوجهات الفردانية والمتع اليومية، وتدخل منطق الإنتاج والاستهلاك لتوجيه الأذواق والأحلام والرغبات، فتضخمت بذلك المطالب والحقوق الفردية والنزعات المتمركزة حول الذات، ونشأت مفاهيم ودلالات سائلة غير منضبطة حول الحرية والحق والذات والإشباع، حيث هيمنت قيم الصناعة بديلاً عن قيم الفطرة والكينونة، مبنية على التقابل وليس التكامل، وعلى النزاع والصراع وليس المودة والرحمة.

كان هذا -طبعًا- مدخلاً مؤثرًا بقوة على تماسك الأسرة كبنية ووحدة داخل المجتمع، وعلى وظائفها ذات الطابع التكاملي، وعلى القيم الضرورية اللاحمة بين عناصرها. فأصبح للمرأة مطالب وحقوق مفردة، وللرجل مطالب وحقوق مفردة، وللأطفال مطالب وحقوق مفردة -صغارًا وكبارًا- وتحول المجتمع إلى أقليات متعددة لكل منها مطالب وحقوق -النساء، الرجال، الأطفال، العجزة- كما ظهرت تشكلات أسرية جديدة مثلية بين رجال أو بين نساء، أو مع حيوانات، وتحولت إلى كتل ضغط إعلامي وسياسي وحقوقي، لانتزاع حقها في التواجد القانوني.

عمومًا، هنالك هيمنة لقيم بديلة تلبي نزعات التملك وليس الكينونة حسب تعبير الناقد إيريك فروم. وفارق كبير بين أن تكون وتملك، وبين أن تملك دون أن تكون. ولا نلقي اللوم هنا على النموذج الغربي وحده مهما كان نافذ التأثير، فالأخطاء الذاتية التاريخية أكثر من أن تحصى. فقبل الاحتكاك بهذا النموذج، وقع انعطاف وتحول كبير عن القيم القرآنية الموجهة لحياة الأفراد والجماعات، ونشأت عادات وتقاليد من التداول الاجتماعي عبر التاريخ، فالتصق كثير منها بالدين وتقرر وكأنه دين. وكيف تكون دينًا وفيها من الظلم والجور والتسلط والعدوان، ما جاء الدين لإصلاحه وتقويمه أصلاً. إن الشرع قد راعى الأعراف، لكن ما لم تعد على أصوله بالإبطال كما هو مقرر عند العلماء. وكل ذلك يستوجب مراجعات ذاتية تصحيحية تنطلق من الوحي المطلق المعصوم وليس من التاريخ النسبي المتغير.

خلاصة

لسنا هنا بصدد المقارنة بين نموذجين، بل بصدد النظر في القيم الموجهة لبناء أسرة هي وحدة أساسية في بنية المجتمع. وسواء كان الخلل ذاتيًا أو خارجيًا في تمثل النموذج السوي، فإنه يبقى حاكمًا ومهيمنًا على غيره. ونعتقد أن مفهوم الأسرة في القرآن الكريم، إذا ما أحسن عرضه ابتداء من أصل التكريم لبني آدم، وانتهاء إلى أدوار الهداية والرحمة والشهادة على الناس بالحق والعدل التي ينبغي أن تقوم بها الأمة، من شأنه أن يقدم حلولاً لمشكلات كثيرة تعاني منها البشرية اليوم أمام عجز النموذج الغربي المادي الاستهلاكي على حل مخلفاته الاجتماعية، إلا عن طريق تصديرها وتعميمها للأسف. ■

(*) جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال / المغرب.

hiramagazine.com

د. ربيعة بنويس*

الإيمان طريق السعادة

١ الإيمان عند النورسي فيه "سعادة ونعمة ولذة وراحة"، إنه "يضم بذرة معنوية منشقة من طوبى الجنة". بل إنه يرى بأن الرقي والتقدم الاجتماعي مرهونان بالإيمان -الإيمان بالله الواحد الأحد- لذلك نجده يعرّفه بقوله: "الإيمان -الذي هو عبارة عن الانتساب إلى الصانع سبحانه- يقوم بإظهار جميع آثار الصنعة الكامنة في الإنسان، فتتعين بذلك قيمة الإنسان على مدى بروز تلك الصنعة الربانية ولمعان تلك المرآة الصمدانية، فيتحول هذا الإنسان -الذي لا أهمية له- إلى مرتبة أسمى المخلوقات قاطبة، حيث يصبح أهلاً للخطاب الإلهي، وينال شرفًا يؤهله للضيافة الربانية في الجنة". من هذا الكلام يتضح أن الإيمان يرتبط ارتباطًا قويًّا بتوحيد الله ﷻ، إنه يحدد العلاقة بين الخالق والمخلوق، بين الصانع والمصنوع، ولا أدل على وجوده ووحدانيته من المخلوقات والموجودات التي يعج بها العالم، والإنسان أهم هذه الموجودات. فلمعرفة الله خالق الأكوان جميعها، يجب النظر إلى تلك المخلوقات، ثم بعد ذلك العمل على توحيده فعبادته، قال تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾(الأنعام:١٠٢)، وهذه العبادة تتطلب طاعته في أوامره ونواهيه، والرضى بقضائه وقدره. وهنا تظهر العلاقة بين الإيمان والأخلاق، الإيمان بالله أولاً وتوحيده، والعمل على طاعته من خلال التحلي بمجموعة من الصفات والأخلاق ثانيًا، يقول أحد

بالإيمان يسمو الإنسان إلى مدارج الصالحين، ويرتبط بخالقه برباط متين، لا يملك أمامه إلا أن ينصاع لأوامره، وهذا الانصياع الذي يحقق أسمى قضية من الإيمان وهي عبادة الله ﷻ، ثم جني ثمار الطاعة والعبادة في يوم الآخرة.

حراء

المتصوفة: "اعرفوا الله ولا تجهلوه، وأطيعوا ولا تعصوه، ووافقوا ولا تخالفوه، وارضوا بقضائه ولا تنازعوه، واعرفوا الحق تعالى بصنعته، هو الخالق الرزاق". وهذه المعرفة لا تتم إلا من خلال القرآن، ذلك أن القرآن الكريم عند النورسي: "ببياناته المعجزة، يبسط أفعال الصانع الجليل، ويفرش آثاره أمام النظر، ثم يستخرج من تلك الأفعال والآثار الأسماء الإلهية، أو يثبت مقصدًا من مقاصد القرآن الأساسية كالحشر والتوحيد".

ففيما يخص أفعال الصانع، يستنتجها النورسي من آيات الذكر الحكيم الذي هو مصدره الأول والأساس، نحو قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٩)؛ ففي الآية إشارة إلى أن الله هو خالق كل شيء، خالق السماوات والأرض وما فيهما، ثم إنه العالم بكل شيء، قال تعالى في كتابه المبين: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(البقرة:١٦٤).

إن الإنسان بعد أن يعرف الله من خلال خلقه، لا بد أن يقوم بعبادته والتقرب إليه، وإلا استحق العقاب، كما يستحق المؤمن الجزاء، يقول بديع الزمان سعيد النورسي: "إن الإنسان الذي أنيط به -من بين جميع المخلوقات- مهام عظيمة، وزود باستعدادات فطرية كاملة، إن لم يعرف ربه بـ"الإيمان" بعد أن عرّف سبحانه نفسه إليه بمخلوقاته البديعة المنتظمة، وإن لم ينل محبته بالتقرب إليه بـ"العبادة" بعد أن تحبب إليه سبحانه بنفسه وعرّفها إليه بما خلق له من الثمار المتنوعة الجميلة الدالة على رحمته الواسعة، وإن لم يقم بالتوقير والإجلال اللائقين به "بالشكر والحمد" بعد أن أظهر سبحانه محبته له ورحمته عليه بنعمه الكثيرة... نعم، إن لم يعرف هذا الإنسان ربه هكذا، فكيف يُترك سدى دون جزاء، ودون أن يعدّ له ذو العزة والجلال دارًا للعقاب؟

وهل من الممكن أن لا يمنح ذلك الرب الرحيم دار ثوابٍ وسعادة أبدية، لأولئك المؤمنين الذين قابلوا تعريف ذاته سبحانه لهم بمعرفتهم إياه بـ"الإيمان" ومحبته لهم بالحب والتحبب له بـ"العبادة"، ورحمته لهم بالإجلال والتوقير له بـ"الشكر؟".

وهنا إشارة ضمنية إلى مقصد آخر من المقاصد الإيمانية الأساسية، وهي الحشر، مستندًا إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ۞ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۞ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾(النبأ:٦-٨) إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾(النبأ:١٧).

ويوم الميقات هو يوم الحشر والنشر والجزاء والحساب، وهو يدخل ضمن الإيمان بالغيبيات، ولن يؤمن الإنسان بهذه الغيبيات إذا لم يؤمن بالله الواحد الأحد وبكتابه المنزل، لذلك نجده تعالى في سورة البقرة يمدح المؤمنين بالغيب بعد أن يذكر الكتاب المبين وهو القرآن المقدس، يقول سبحانه: ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(البقرة:١-٥).

ولعل الهدف من الإيمان بالحشر والغيبيات عمومًا، هو تقويم الأخلاق والسلوك الدنيوي، لأن هذا السلوك هو الذي يوصل إلى النتيجة الحتمية في الآخرة وهي النعيم في الجنة، ومن ثم فتقويم الأخلاق والسلوك، سبيل إلى التنمية والتطور وخدمة مستقبل الأوطان وتحقيق التقدم والعدالة والمساواة... من هنا يتضح بأن هدف النورسي من وراء "رسائل النور"، ليس هو الخنوع والاستسلام والوقوف عند العبادة دون العمل الذي قد يؤدي إلى الانحطاط والتخلف، بل إنه يحمل نفسًا تجديديًا معاصرًا شمل -بالإضافة إلى المجال الديني

التعبدي- مجالات نفسية وجدانية، ومجالات اجتماعية وفكرية. فـ"الإيمان بالآخرة يجعل من الإنسان كائنًا قادرًا على فهم الكون وألغازه، وحين يفهم الإنسان الكون وسننه، يفهم نفسه أولاً، ثم موقعه من هذا الكون ثانيًا، فيتحرر من عقدة الخوف، ثم يصوغ في ضوء كل ذلك مشاريع الإعمار وقد فهم أن الكون خلق لخدمته، وخلق هو للعبادة، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا﴾(الجاثية:١٣)، وهي حقيقة الحرية والتحرر التي تطلق طاقات الإنسان للإبداع".

وقد تنبه النورسي لهذه القضية، فأفرد الكلمة السابعة من كلماته لمسألة الإيمان بالله واليوم الآخر، ومما جاء فيها: "إن الإيمان بالله وباليوم الآخر، أثمن مفتاحين يحلان لروح البشر طلسم الكون ولغزه، ويفتحان أمامها باب السعادة والهناء، وكيف أن توكل الإنسان على خالقه صابرًا، والرجاء من رزاقه شاكرًا أنفع علاجين ناجعين. وإن الإنصات إلى القرآن الكريم، والانقياد لحكمه، وأداء الصلوات وترك الكبائر، أغلى للآخرة زادًا، وأسطع للقبر نورًا، وأيسر تذكرة مرور في رحلة الخلود".

الإيمان بالله يمثل أكرم صلة بين العبد وخالقه، إنه نفحة ربانية يقذفها الله في قلوب عباده المؤمنين، تجعلهم متعلقين بمحبته، لأن الإيمان لا يكتمل إلا بالحب الحقيقي لله ولرسوله ولشريعته التي يمثلها القرآن. هذا الحب الذي يجعل مصطلح الإيمان عند النورسي، يترادف مع مصطلح التوحيد حيث يقول: "لقد بيّنا إجمالاً في رسالة "قطرة من بحر التوحيد" قطبَ أركان الإيمان وهو "الإيمان بالله". وأثبتنا أن كل موجود من الموجودات يدل على وجوب وجود الله سبحانه ويشهد على وحدانيته".

وإذا كان الإيمان بالله أول أركان الإيمان، فإن الإيمان باليوم الآخر يأتي في المرتبة الثانية "بوصفه يوم الوقوف بين يدي رب العالمين لتقديم الحساب على عمله في الدنيا، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر. فلتوضيح هاتين الركيزتين الأساسيتين في الإيمان، كان القرآن مليئًا بالأدلة الحسية والعقلية والوجدانية على وجود الله تعالى وأحقيته بالعبادة، وكان مليئًا أيضًا بالأدلة التي تثبت أن

الإيمان بالله يمثل أكرم صلة بين العبد وخالقه، إنه نفحة ربانية يقذفها الله في قلوب عباده المؤمنين، تجعلهم متعلقين بمحبته، لأن الإيمان لا يكتمل إلا بالحب الحقيقي لله ولرسوله ولشريعته التي يمثلها القرآن.

حراء

الإنسان لا ينتهي عند الموت، بل سيبعث ويحيا من جديد للمحاسبة، ثم يخلد إما في النعيم أو في الجحيم".

إن مسألة الحشر عند النورسي "حقيقة راسخة قوية، بحيث لا يمكن أن تزحزحها أيّة قوة مهما كانت حتى لو استطاعت أن تزيح الكرة الأرضية وتحطمها، ذلك لأن الله ﷻ يقرّ تلك الحقيقة بمقتضى أسمائه الحسنى جميعها وصفاته الجليلة كلها، وأن رسوله الكريم ﷺ يصدّقها بمعجزاته وبراهينه كلها، والقرآن الكريم يثبتها بجميع آياته وحقائقه، والكون يشهد لها بجميع آياته التكوينية وشؤونه الحكيمة".

فالإيمان بالحشر، لا يمكن فصله عن الإيمان بالله الواحد الأحد، وعن القرآن وما ورد فيه من آيات الله العظيمة المعجزة، نحو قوله تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(الروم:٥٠).

إن آيات الحشر دليل قاطع على ربوبيته ووحدانيته وقدرته ﷻ، إنها دليل على صفاته وأسمائه الحسنى وأنه القدوس المنزه عن العجز، بل دليل قاطع على وجود دار أخرى هي الباقية ما دامت أمور الدنيا على كثرتها واختلافها وجمالها تافهة فانية، يقول النورسي: "إن الذي يُحيِي هذه الأرض الهائلة -وهي معرض العجائب- ويميتها كأدنى حيوان، والذي جعلها مهدًا مريحًا وسفينة جميلة للإنسان والحيوان، وجعل الشمس ضياء وموقدًا لهذا المضيف، وجعل الكواكب السيّارة والنجوم اللامعة مساكن طائرات للملائكة... إن ربوبية خالدة جليلة إلى هذا الحدّ، وحاكمية محيطة عظيمة إلى هذه الدرجة، لا تستقران ولا تنحصران في أمور الدنيا الفانية الزائلة الواهية السيالة التافهة المتغيرة. فلا بد أن هناك دارًا أخرى باقية دائمة جليلة عظيمة مستقرة تليق

hiramagazine.com

به سبحانه، فهو يسوقنا إلى السعي الدائب لأجل تلك الممالك والديار، ويدعونا إليها وينقلنا إلى هناك".

هذا الكلام يظهر الاتجاه الوعظي الإرشادي الذي تميز به النورسي في كتاباته، لأن الهدف عنده ليس هو الإيمان بالله واليوم الآخر فحسب، بل إيصال الدعوة إلى أكبر عدد من الناس ذوي العقول النيرة، الذين لم تؤثر فيهم العلمانية التي انتشرت بمختلف البقاع الإسلامية في القرن العشرين بشكل كبير. لأن الدعوة وتحبيبها إلى المسلمين وخاصة التُركيين، كان هو الدافع الأساسي له، بغية تخليصهم من براثن عالم الماديات الذي استبد بالعقول والألباب، ذلك "أن الفكر المادي في عصرنا هذا، قد أسكر كثيرًا من الناس فأوغل الوهم والشبهة في أبسط الأمور البديهية". فالرجل كان "مستشعرًا لهذه الهجمة المادية، باثًّا شكواه منها في مناسبات عديدة، وكان يدرك أنها نزعة تصيب أول ما تصيب من معتقدات المسلم إيمانه بالآخرة"، لذلك نجده ركز في مؤلفاته على ذينك الركنين الأساسيين؛ "الإيمان بالله" و"اليوم الآخر" أكثر من باقي الأركان، لأنهما ركيزتا الإيمان وأساساه، لهذا وردا مرتبطين في الكثير من آيات الذكر الحكيم، نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(البقرة:١٧٧).

إن الإيمان بالله واليوم الآخر، هما عصبا الإيمان عند النورسي، بل في الشريعة الإسلامية، لذلك وجدناه يتصدى لأهل الضلالة الذي يقول ممثلهم: "إني أرى أن سعادة الدنيا، والتمتع بلذة الحياة، والرقي والحضارة، والتقدم الصناعي، هي في عدم تذكر الآخرة، وفي عدم الإيمان بالله، وفي حب الدنيا، وفي التحرر من القيود، وفي الاعتداد بالنفس والإعجاب بها... لذا سقتُ أكثر الناس ولا زلت أسوقهم -بهمة الشيطان- إلى هذا الطريق"؛ فيدعو الإنسان للعودة إلى رشده حتى لا يكون الشقاء مآله، وإلى التشبث بالقرآن الكريم والدخول في رضى الله، "إن النجاة من الإعدام الأبدي، والخلاص من السجن الانفرادي، وتحويل الموت إلى سعادة أبدية، إنما تكون بالإيمان بالله وطاعته ليس إلا"، ذلك لأن "الإيمان بالله نور حياتنا، ضياء روحنا، روح أرواحنا، فقلوبنا مطمئنة بالله لا تعبأ بالأعداء، بل لا تعدّهم أعداء"، "كما أن الإيمان نور وهو قوة أيضًا، فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي، يستطيع أن يتحدى الكائنات، ويتخلص من ضيق الحوادث مستندًا إلى قوة إيمانه، فيبحر متفرجًا على سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الأمان والسلام".

فالإنسان، بالإيمان يسمو إلى مدارج الصالحين، ويرتبط بخالقه برباط متين، لا يملك أمامه إلا أن ينصاع لأوامره، وهذا الانصياع، الذي يحقق أسمى قضية من الإيمان وهي عبادة الله ﷻ، ثم جني ثمار الطاعة والعبادة في يوم الآخرة. لذلك كان الإيمان بالله واليوم الآخر، أساسين للإيمان، وما يأتي بعدهما مجرد وسائط لتحقيق العبادة الحقة، "فالملائكة هم جنود الله تعالى، وسفراؤه بينه وبين رسله، وأما الرسل فهم حملة رسالة العبادة الشاملة لكل نشاط، وأما الكتب فهي أوعية الشرائع والدساتير والأخلاق بدلائلها وحكمها، وأما القدر فهو تقدير الله تعالى -في الأزل- لما كان ويكون وسيكون في غيب عن كل كائن، والواجب الإيمان والرضى به إذا نزل ووقع في الوقت المقدر له".

إن الرسل والكتب، هي التي عرفت بالصانع الأكبر والحياة الأزلية؛ بل تلك الكتب والرسل، وخاصة القرآن الكريم، معجزة الرسول محمد ﷺ، التي صدق بها جميع الأنبياء، هي التي أظهرت للناس عقائدهم ومناسكهم، بل هي التي بينت لهم السلوك والأخلاق التي عليهم أن يتحلوا بها. ■

(*) أستاذة بجامعة ابن طفيل بالقنيطرة / المغرب.

المراجع

(١) الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

(٢) البعد الأخروي في رسائل النور، مؤسسة الثقافة والعلوم، مركز رسائل النور، إسطنبول، ٢٠٠٦.

(٣) حلاوة الإيمان في الانتساب والدعوة والابتلاء، للمفضل فلواتي، مطبعة آنفو، برانت، فاس، ٢٠٠٥.

د. محمد باباعمي*

هل نحن في حاجة إلى

إعادة تعريف الجامعة؟

إن مصطلح "الجامعة" كما هو في التراث الغربي مترجم إلى العربية (Université)، يعني "مؤسَّسة مرتبطة بالكنيسة في القرون الوسطى، وكانت مهمَّتها ضمان التعليم في المستويين الثانوي والعالي".

ثم صارت تعرَّف بأنها "مؤسَّسة شعبية رسمية للتعليم العالي والبحث العلمي، متميِّزة بنوع من الحرية والقُدرة على التمكين من شهادات ذات صفة وطنية"[1].

أمَّا موسوعة "ويكيبيديا" الإلكترونية، فتعرِّف الجامعات بما يشبه التعريف السابق، وهي "مؤسَّسات للتعليم العالي والأبحاث، تعطي شهادات أو إجازات أكاديمية لخرّيجيها. وتوفِّر دراسة من المستوى الثالث والرابع؛ كاستكمال للدراسة الابتدائية والثانوية. وكلمة جامعة مشتقَّة من كلمة الجمع والاجتماع، ففيها يجتمع الناس للعلم".

غير أن مثل هذه التعاريف الكلاسيكية لا تلائم طبيعة البحث العلمي المتغيرة، ولا المحيط السياسي والفكري والعلمي المتطور بسرعة فائقة في عصر ما بعد ثورة المعلومات. ولذا رأينا أن من أفضل التعاريف للجامعة، في ظل ما سبق من مقدمات ومفاهيم هو: "الجامعة فضاء يجمع طائفة من الباحثين، لهم الحرية الكاملة لمباشرة البحث العلمي في أي مجال معرفي كان"[2].

وهي في تعريف آخر "فضاء يأوي طائفة من الباحثين، يتقاسمون فيما بينهم ما يتعلمونه مباشرة".

إن الجامعة لا ترقى إلى المكانة اللائقة بها، إلا إذا انطلقت من "الرؤية الكونية" و"النموذج المعرفي" للأمة التي تنتمي إليها، أي من عقيدة المجتمع وثوابته وأصوله، وتستفيد مع ذلك بكل التقنيات والآليات التي يمنحها العصر، وتجود بها التكنولوجيا.

حراء

دون اعتبار للشكل الرسمي، ولا للشهادة التي تقدم، ولا للجانب القانوني؛ فكل هذه الأمور شكلية حتى وإن وُجدت في مؤسسة ترقى بها بالضرورة إلى مستوى الجامعة، إلا إذا كان المحتوى بحثيًا حقيقيًا، فكم من مركز للبحوث -صغير الحجم، قليل العدد- يُنتج من المعارف ما لا تنتجه جامعات كبرى.

ونضيف إلى هذا التعريف ضرورة أن تكون الجامعة مجالاً خِصبًا لإيجاد الحلول المناسبة للإشكالات التي تعترض المجتمع في جميع مجالات حياتها، بمنهجية علميّة، وباجتهاد ودراية.

كما نضيف إليه وجوب أن تؤسس الجامعة على أسس "الرؤية الكونية" و"النموذج المعرفي" للمجتمع الذي تنشأ فيه؛ حتى لا تكون -في حال مجتمعنا الإسلامي مثلاً- غريبة غربية، مستوردة على شاكلة المواد الغذائية المعلّبة، نمطية على صورة المرجعية الغربية المحورية[٣].

ونخلص مما تقدّم إلى أن الجامعة "فضاء حرّ يمارَس فيه البحث العلمي، ويتقاسم فيه الباحثون معارفهم وهي المحيط الذي يدرس إشكالات المجتمع الأصيلة في جميع المجالات، ويعمل على صياغة حلول علمية عملية لها من منطلقاتهم المعرفية المتحيزة، فهو بالتالي آلة لتغيير المجتمعات نحو الأفضل".

وبالنظر إلى علاقة الجامعة والبحث العلمي بالكتاب والوثيقة والمصدر -أي دلالة الجامعة باعتبار مكتبتها- فإن بعض التعاريف تعتبر الجامعة مكتبة مواتية لا غير، فإذا حقّقت هذا الشرط كانت جامعة محترمة، وإذا لم تحقّقه لم تعدَّ ضمن الجامعات الحقيقية. يقول "فلاديمير نابوكوف" (Vladimir Nabokov): "مكتبة من الطراز العالي بجوار حرم جامعي مريح، هو أفضل مكان للمؤلّف وللمبدع، وللمخترع".

من هنا كان لزامًا على الجماعات والهيئات، أن تبتعد -قدر المستطاع- عن الشكلية والرسمية، لتوجد ظروفًا ووسائل ومناهج تكون بمثابة الحقل الخصب للتفكير مهما كان حجمها ومهما كانت صفتها. فكم من ناد، أو صالون، أو مقهى خرّج أدباء ومفكّرين ومبدعين... وكم من صرح جامعي يأوي الآلاف من الطلبة والمدرّسين لكنّه خلو من الثمرات والنتائج التي تؤسّس للحضارة والريادة والتمكين.

ولعل شكل "بيت الحكمة" ببغداد، و"دار الحكمة" بالقاهرة، هما الأنموذج الأمثل للجامعة لو استوعبناه وأبدعنا صيغة مكيفة منه.

فتذكر المصادر أن "بيت الحكمة" هي مكتبة شاملة، أنشئت في عصر الخليفة العباسي هارون الرشيد (حكم ٧٨٦-٨٠٩م) وابنه عبد الله المأمون (حكم ٨١٣-٨٣٣م)، وأحدث نقلة نوعية في الترجمة تمهيدًا للعصر الذهبي الإسلامي في بداية القرن التاسع الميلادي.

وقد بلغ نشاط "بيت الحكمة" ذروته في عهد الخليفة المأمون الذي أولاه عناية فائقة، ووهبه كثيرًا من ماله ووقته، وكان يشرف عليه، ويختار له من بين العلماء المتمكنين من اللغات.

وبذلك كانت "بيت الحكمة" خزانة كتب، ومركز ترجمة وتأليف، ومركزًا للأبحاث ورصد النجوم، وغير ذلك من مجالات العلم والمعرفة. ومن أهم ما ميّزها؛ تعدّد المصادر، والكتب القديمة، والترجمات من اللغات القديمة، والكتب التي ألفت للخلفاء، والكتب التي نُسخت بعناية، مما جعلها مجمعًا علميًا. وظل هذا الصرح العلمي قائمًا حتى اجتاح المغول بغداد سنة (٦٥٦هـ-١٢٥٨م)؛ حيث تم تدمير معظم محتوياته في ذلك الوقت.

أمّا "دار الحكمة"، فتذكر المصادر أنها جامعة أسسها الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله عام (٣٩٥هـ-١٠٠٤م)، وأنها حوت (١,٦٠٠,٠٠٠) مجلد ضمّت (٦٥٠٠) مخطوطة في الرياضيات و(١٨,٠٠٠) مخطوطة في

hiramagazine.com

الفلسفة، وكان الدخول إليها والاستنساخ منها والترجمة مجانًا.

يقول المؤرخ أحمد بن علي المقريزي: "إن دار الحكمة في القاهرة، لم تفتح أبوابها للجماهير إلا بعد أن فرشت وزيّنت وزخرفت وعلّقت على جميع أبوابها وممراتها الستائر، وعيّن لها القُوام والخدم، وكان عدد الخزائن فيها أربعين خزانة، تتسع الواحدة منها لنحو ثمانية عشر ألف كتاب، وكانت الرفوف مفتوحة، والكتب في متناول الجميع، ويستطيع الراغب أن يحصل على الكتاب الذي يريده بنفسه ما تيسر له ذلك، فإذا ضل الطريق استعان بأحد المناولين".

مما تقدم نستنبط أن الجامعة لا ترقى إلى المكانة اللائقة بها، إلا إذا توفرت على عدد من الشروط والمقاييس، أهمها:

• أن تنطلق من "الرؤية الكونية" و"النموذج المعرفي" للأمة التي تنتمي إليها، أي من عقيدة المجتمع وثوابته وأصوله، وتستفيد مع ذلك بكل التقنيات والآليات التي يمنحها العصر، وتجود بها التكنولوجيا.

• أن تكون فضاء حرًّا للعلوم والمعارف.

• أن تحتوي على جميع المصادر والوسائل التي تمكّنها من البحث العلمي الجاد.

• أن تكون متعددة التخصُّصات، ذلك أن التخصص الواحد قد يقتل الحقيقة العلمية ويضيق الأفق.

• أن تستجيب لحاجات المجتمع، وتعالج قضاياه، وأن لا تكون جوفاء باردة بعيدة عن اهتماماته.

• أن تعمل ضمن سياسة الأمة، وبالتنسيق مع الحاكم؛ يمدّها بالعناية دون شروط، وتمدّه بالنصح والبحث العلمي وبالإجابات على إشكالاته، دون تملق ولا نفاق. ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

الهوامش

(١) موسوعة Encarta، النسخة الفرنسية الإلكترونية.

(٢) Laszlo: Les université Américaines.

(٣) وانظر: المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

يا حسرةً على العباد!

مساكنكم اليومَ هامدة خاوية،
حزينة بائسة..
لقد كنتم في النعيم تمرحون،
وفي أرجاء العالم تنتشرون..
وبضربة من ضربات القدر،
مأساويين صرتُم، بائسين، مقهورين..
فلو سُئلتم "كم في الدنيا لبثتُم؟"
لأجبتم "يومًا أو بعض يوم".
فوا أسفاه على ضياعكم الأليم،
ووا حسرتاه على خسرانكم المبين!..

* * *

د. عبد الرحمن العشماوي*

هو الإسلام

من الإسلامِ ينبثق السلامُ ... ويُبنى من مبادئه النظامُ
وتشرَبُ نورَه الصافي قلوبٌ ... وينهَلُ من مكارمِهِ الكِرامُ
هو الغيثُ الذي يُروي عُقولاً ... بأنقَى ما يجودُ به الغَمَامُ
هوَ النَّهرُ الذي يسقِي قلوبًا ... فينمو الحُبُّ فيها والوِئَامُ
هو الغصنُ الوَرِيفُ يَمُدُّ ظلاًّ ... يفيئنا إذا احْتَدَمَ الزِّحَامُ
لو التفتتْ إليهِ قلوبُ قَومِي ... لما أزرَى بأقصانا اللئَامُ
ولا عانَى من البَاغِي عِرَاق ... ولا عانتْ من الباغي شآمُ
ولا لعبتْ بِنَا رومُ وفُرْسٌ ... ولا أزرَى بعروتنا انفصَامُ
ولا انقطعتْ حِبَالُ القُدسِ عنَّا ... ولا ضاعتْ ولا انفلَتَ الزِّمَامُ
هو الإسلامُ فيضٌ من يَقينِ ... تطيبُ بهِ النفُوسُ ولا تُضَامُ
له في الهند تاريخ عظيم ... وفي السند البطولات الجسامُ
وفي أفريقيا السوداء هَديٌ ... وإيمان به يُمحى الأثامُ
له في تركيا أسوارُ مجدٍ ... تَهاوى دُونَ عزّتِها الطَّغامُ

غضبتُ لديننا من كل ثغرٍ يشوّهُه، وليس له لجامُ
غضبتُ لأمتي فيهَا رجالٌ على أبوابِ حَيْرتِهم أقاموا
لهم في منهج الإسلامِ نورٌ ويشغلهم عن النور الظلامُ
مضوا، لكنْ بِلاَ وعي فضلُّوا وفي بحر الهوى واللَّهوِ عَامُوا
ثقافتهم ثقافة سامِريٍّ له مالٌ وليسَ لهُ ذِمَامُ
غضبتُ لأمتي، فيها نِسَاءٌ سحائبهن في الدَّعوَى جَهَامُ
لهنَّ من الهُدَى ظلٌّ ظليلٌ ويصرفُهُنَّ في البيدِ القَتَامُ
غضبت لهن، لا رأيٌ حكيمٌ ولا فعلٌ يطيبُ ولا كلامُ
وهُنَّ مدارس الأجيال فيها معالم عزّ أمتِنَا تُقامُ
غضبتُ لقومنا، شُغِلُوا بِوَهْمٍ فضَاعوا في مسالِكِه وهَامُوا
تَساقَوْا من كؤوسِ الغَربِ حتَّى أصابَ عقولَهم منها السّقَامُ
وأشغلهُم صراعٌ مذهبيٌ تصيبُ ظهورَنَا منه السِّهَامُ
خِصامٌ فرَّق الأوطانَ حتَّى أراقَ دماءَنَا هذا الخِصَامُ
غضبتُ لنَا، يجمعُنَا هُدَانَا وما زلنا يفرِّقُنَا انقسامُ
هو الإسلامُ، يمنحنَا كُنوزًا من التقوى إذا كثر الحُطام
جميل أن نمدّ له جسورًا وأن يأوي لدوحته الحَمامُ
فهذا ديننا فجرٌ مبينٌ وهذي عندنا الهِمَمُ العِظَامُ
وهذا عندنا "حرم عظيم" و"كعبتنا" و"زمزم" و"المقامُ"
هو الإسلامُ، أشجارٌ وظلُ يطيب لمن تُفيّئُه المُقَامُ
هو البستانُ تعشَقهُ الروابي وتألفه البلابلُ واليَمَامُ
هو الأفقُ الفسيحُ فلا انطواءٌ يحاصِرُ مشرِقَيْهِ ولا انهزامُ
هو الإسلامُ منهجهُ سلامٌ على الدنيا، ومنْطِقُهُ سلامُ

---

(٢) شاعر وأديب / المملكة العربية السعودية.

د. خالد حربي*

أسس الكيمياء الحديثة في الحضارة الإسلامية

يعد جابر بن حيان أول من حضّر الماء الملكي، فبعد أن حضّر كلاً من حمض النتريك وحمض الهيدروكلوريك، مزجهما، ثم أضاف إلى هذا المزيج ملح النشادر أو كلوريد الأمنيوم، فوجد أن الخليط يذيب الذهب، فسماه "ماء الذهب" أو "الماء الملكي".

واستطاع جابر تحضير الأسفيذاج من الرصاص، وسماه أبيض الرصاص؛ وهو ملح كربونات الرصاص القاعدية ($Pb(OH)_2.2PbCO_3$) في الكيمياء الحديثة.

وابتكر جابر طريقة فحص النحاس نوعيًا، واكتشف أن اللهب يكتسب اللون الأزرق بمركبات النحاس. ويعزى إليه عمليات كيميائية مبتكرة لتنقية المعادن وتحضير الفولاذ، وابتكر كثيرًا من الأدوات والأجهزة المختبرية، وصنفها وشرح كيفية عملها. كما وصف ما قام به من عمليات كيميائية؛ كالإذابة والتكليس والتشميع والتنقية والتقطير والاختزال والبلورة وغيرها، وبيّن أهمية كل منها.

ويرجع الفضل إلى جابر بن حيان في وضع أسس علم السموم من النباتات والحيوانات والأحجار، وساعده في ذلك، الاهتمام بتقطير السوائل والعصارات الحيوانية، فوصف السموم التي استخرجها وصفًا دقيقًا، ومقدار ما يعطى للمريض، بطرق مبتكرة لدفع مضار السموم.

وأسس جابر لعلم البلمرات الحديث، باختراعه أنواعًا كثيرة من الطلاء، منها ما يقي المعادن من الصدأ، ومنها ما يحمي الأخشاب من الاحتراق، ومنها ما يقي الملابس من البلل. وقادته تجاربه الكثيرة إلى اكتشاف نوع من الورق غير قابل للاحتراق، ولا يخفى ما لهذا الاكتشاف الخطير،

من أهمية في كتابة الرسائل المهمة والعهود والعقود والمواريث وغيرها. ويرتبط بهذا الاكتشاف أيضًا، قيام جابر بتحضير نوع مضيء من الحبر (مداد)؛ استخرجه من المرقشيتا الذهبية (كبريتيد الأنتيمون). ويشكل هذا الاكتشاف أهمية خاصة؛ حيث استخدم في كتابة المؤلفات والمخطوطات الثمينة بدلاً من الذهب الخالص، كما استخدم في مراسلات الجيوش الحربية التي تمكنت من قراءتها في ظلام الليل الحالك.

وبالإضافة إلى ما سبق، يُعد جابر بن حيان أول من اكتشف الصودا الكاوية، وأول من استخرج نترات الفضة والمعروفة بـ"حجر جهنم"، واستخدمها في كيّ الجروح والعضلات الفاسدة، وما زالت هذه المادة معروفة حتى الآن. وهو أول من لاحظ ما يحدث من ترسب كلوريد الفضة عند إضافة محلول ملح الطعام إلى محلول نترات الفضة، وعرف آيون الفضة النشادري المعقد. وجابر أول من استخرج ثاني أكسيد الزئبق (السليماني) وحامض النيتروهيدروكلوريك (الماء الملكي)، وأول من أدخل طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة الحامض، ولا تزال هذه الطريقة تستخدم إلى الآن في تقدير عيارات الذهب في السبائك الذهبية وغيرها. كما عرف جابر استخدام ثاني أكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج، واستحضر كربونات البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم، وكبريتيد الأنتيمون (الأثمد). وابتكر طريقة تصفية المعادن وتنقيتها من الشوائب المختلطة بها، وأبدع الفرن، والبوتقة، ليعيد ما يجري في الطبيعة.

تعبر مؤلفات جابر بن حيان عن مرحلة هي الأهم في تاريخ الكيمياء الإسلامية، كما لا تقل أهميتها في تاريخ الكيمياء العالمي. وهذا ما جعل جورج سارتون يطلق على المدة التي تقع بين سنتي (٧٥٠-٨٠٠م) "عصر جابر بن حيان"، وذلك لمجهوداته العظيمة في علم الكيمياء. فكان لكيمياء جابر ومؤلفاته أثر واضح في تطور علم الكيمياء العربي الإسلامي لدى اللاحقين من الكيميائيين المسلمين، وامتد هذا الأثر حتى الكيميائيين الغربيين في العصر الحديث.

أسس جابر بن حيان لعلم البلمرات الحديث، باختراعه أنواعًا كثيرة من الطلاء، منها ما يقي المعادن من الصدأ، ومنها ما يحمي الأخشاب من الاحتراق، ومنها ما يقي الملابس من البلل. وقادته تجاربه الكثيرة إلى اكتشاف نوع من الورق غير قابل للاحتراق.

حراء

أبو بكر الرازي

وإذا تتبعنا من جاء بعد جابر من مشاهير علماء المسلمين في الكيمياء، وجدنا أبا بكر الرازي (٨٦٤-٩٢٥م) يُرجع الاهتمام بدراسة الكيمياء، إلى إدراكه أن موضوعاتها تتصل اتصالاً وثيقًا بدراسة الطب. ولذلك نراه يصنف كتابًا قيمًا في الكيمياء أسماه "سر الأسرار"، امتد أثره في العصور اللاحقة، وعُرف في العالم الغربي باسم (Libersecre Torum). وهذا الكتاب يبين أن الرازي قد عُني بعلم الكيمياء، وصرف جهودًا كبيرة في إجراء التجارب الكيميائية المختلفة.

درس الرازي كل ما أتى به جابر واستوعبه، الأمر الذي قاده إلى تطوير وتحسين بعض آراء ونظريات جابر بن حيان، وأضاف للكيمياء إضافات جليلة، جعلت منه مؤسسًا للكيمياء في الشرق والغرب. فلقد طوّر الرازي الكيمياء الطبية تطورًا مهمًا امتد أثره إلى العصر الحديث، وذلك حينما أثبت -بتجاربه الكثيرة- أن شفاء المريض يرجع إلى إثارة التفاعلات الكيميائية في جسمه. كما قادته تفاعلاته الكيميائية وتجاربه، إلى الإبداع في تقسيمه المواد المستعملة في الكيمياء إلى ثلاثة أقسام: مواد برانية، ومواد نباتية، ومواد حيوانية.

أما المواد البرانية أو الترابية، فقد أوضح الرازي بتجاربه، كيفية تحضيرها، وميّز بين الجيد منها والرديء، وعرّف بألوانها، وصنفها في ستة أصناف هي: الأرواح والأجساد والأحجار، والزاجات والبوارق والأملاح. وأما المواد النباتية، فذكر الرازي أنها نادرة التداول في الكيمياء، ومنها الأشنان الذي يستعمل رماده في تحضير القلي. وتشمل المواد الحيوانية المتداولة في الكيمياء، الدم، واللبن، والبول، والبيض، والقرون، والشعر، والصوف.

hiramagazine.com

ويعد هذا التقسيم للمواد المستعمل في الكيمياء الذي وضعه الرازي، أهم التقسيمات التي حفل بها تاريخ علم الكيمياء في عمومه. وليس أدل على ذلك من استمراره في الدراسات الكيميائية في العصور اللاحقة على الرازي وحتى العصر الحديث؛ إذ قامت الكيمياء الحديثة على أقسام الرازي مدمجة في قسمين، الأول قسم الكيمياء غير العضوية أي البرانية كما سماها الرازي، والآخر قسم الكيمياء العضوية ويحتوي على المواد الحيوانية والنباتية.

وكان لاهتمام الرازي بالتجارب الكيميائية واعتماده عليها، أثره الواضح في ابتكاره كثيرًا من الأدوات والأجهزة الكيميائية المعدنية والزجاجية، واستخدامها في إجراء التجارب، ومنها البوتقات، والجفنات، والدوارق، والكؤوس الزجاجية والخزافية، والأحواض، والملاقط، وملاعق الاحتراق، والأفران... كما استخدم أنواعًا كثيرة من الحمامات، مثل حمّام البخار، وحمّام الرماد، وحمّام الرمل، والحمّام المائي.

إن هذا التنظيم الذي اتبعه الرازي بين الأدوات والأجهزة والمواد، هو نفسه التنظيم العلمي المتبع في معامل ومختبرات الكيمياء الحديثة.

اعتبر الرازي أن التجربة هي المحك أو المعيار في العمليات الكيميائية، فما تثبته التجارب فحقّ مقبول، وما لم تثبته فباطل مرفوض. فأرسى بذلك دعائم المنهج التجريبي في الكيمياء سيرًا على درب أستاذه جابر بن حيان. وبتطبيق المنهج التجريبي، استطاع الرازي تحضير المستحضرات الكيمائية وأدخلها في الطب، وعدّ بذلك رائد الكيمياء الطبية والصيدلانية.

فالرازي أول من استخرج الكحول من النشويات والسكريات المتخمرة، واستعمله -صيدلانيًّا- في تركيب الأدوية وتحضيرها. وأبدع الرازي في تجبير كسور العظام باستحضاره الجبس أو كبريتات الكالسيوم اللامائية؛ عن طريق حرق كبريتات الكالسيوم المائية ومزجها بالبيض. كما أبدع الرازي -ولأول مرة- طريقة تنقية المواد الكيميائية من الشوائب الملونة، والتي ما زالت مستخدمة حتى اليوم، وذلك باستخدامه الفحم الحيواني في قصر الألوان، وإزالة الأوساخ، وخاصة الملونة من المواد. وعلى الرغم من التشابه الكبير بين الصودا الكاوية (كربونات الصوديوم) والبوتاس (كربونات البوتاسيوم) في الخواص الطبيعية والكيميائية، إلا أن الرازي ميّز بينهما تمييزًا دقيقًا أفاد الكيمياء الحديثة. وقادته تجاربه إلى أن النحاس إذا تعرض للهواء الرطب، تحول إلى كربونات النحاس القاعدية الخضراء، أما إذا تم تسخينه بحرارة شديدة، فإنه يتحول إلى مادة سوداء، أو أكسيد النحاسيك في الكيمياء الحديثة. وشرح الرازي طرق وتجارب استعمال ثاني أكسيد المنجنيز في صناعة الزجاج، وابتكر ميزانًا دقيقًا لحساب الوزن النوعي للمعادن وكثافتها، أسماه بـ"الميزان الطبيعي".

أبو القاسم المجريطي

ومن الكيميائيين المسلمين الذين تأثروا بفكر وكيمياء جابر بن حيان، أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي (٩٥٠-١٠٠٨م)؛ رائد الحركة العلمية في الأندلس إبان القرن العاشر الميلادي. آمن بنظرية جابر في تكوين المعادن، وسيطرت عليه فكرة تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وفضة. ولشدة تأثره بكيمياء جابر ومنهجه فيها، كان ينصح بدراسة كتبه والتدريب على تجاربه، وقد أجرى هو نفسه كل تجارب جابر الكيميائية، ثم تجاربه الجديدة التي انتهت به إلى إضافات كيميائية غير مسبوقة انتحلها بعض رواد الكيمياء الحديثة من الغربيين، ومنها هذه التجربة التي يصف المجريطي إجراءاتها قائلاً: أخذت الزئبق الرجراج الخالي من الشوائب، ووضعته في قارورة زجاجية على شكل بيضة، وأدخلتها في وعاء يشبه أواني الطهي، وأشعلت تحته نارًا هادئة بعد أن غطيته وتركته يسخن أربعين يومًا وليلة، مع مراعاة ألا تزيد الحرارة على الحد الذي أستطيع معه أن أضع يدي على الوعاء الخارجي، وبعد ذلك لاحظت أن الزئبق الذي كان وزنه في الأصل ربع رطل، صار جميعه مسحوقًا أحمر ناعم الملمس، وأن وزنه لم يتغير.

بهذه التجربة، وضع المجريطي أساس قانون الاتحاد الكيميائي وقانون حفظ الكتلة، حيث زاد وزن الزئبق

hiramagazine.com

نتيجة تفاعله مع الأكسجين، وينتج من التفاعل الأكسيد الأحمر. ومن العجيب أن يكرر "بريستلي" و"لافوازيه" نفس تجربة المجريطي بعد ستة قرون وينسبان لأنفسهما نتائجها، وخاصة وقد وضع المجريطي أساس قانون الاتحاد الكيميائي وقانون حفظ الكتلة.

ابن سينا

أما الشيخ الرئيس ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م)، فقد أنكر إمكان تحويل المعادن أو العناصر الخسيسة إلى ذهب وفضة، وسخر من الكيميائيين في عصره الذين اعتقدوا ذلك، وشكك في قدراتهم على تحويل مواد صلبة من عنصر إلى آخر. فليس -كما يقول ابن سينا- في مقدور المدعين، تحويل العناصر من نوع إلى آخر تحويلاً حقيقيًا، ولكن باستطاعتهم تقليد العناصر تقليدًا جيدًا من حيث اللون والمظهر فقط.

ومع أن ابن سينا قد أنكر تحويل المعادن، إلا أنه سلك مسلك جابر بن حيان في تكوين المعادن واتبع نظريته، وأتى بنظرية متطابقة مع نظرية جابر، مقررة أن جميع الأجساد في الجواهر زئبق انعقد بكبريت المعدن المرتفع إليه من بخار الأرض واختلفت لاختلاف أعراضها، ويرجع اختلاف أعراضها إلى اختلاف نسبها.

وكما تأثر ابن سينا بنظرية تكوين المعادن الجابرية، أشار أيضًا إلى كثير من العمليات الكيميائية التي قام بها جابر ومن بعده الرازي، مثل الترشيح والتشميع والتقطير والتصعيد والاستخلاص، واستخدم نفس أجهزة جابر الكيميائية في إجراء هذه العمليات، تمامًا مثلما استخلص بطريقة جابر كثيرًا من المركبات الكيميائية من أصل حيواني، وأخرى من أصل نباتي.

أبو إسماعيل مؤيد الأصفهاني (الطغرائي)

ومن تلاميذ مدرسة جابر بن حيان الكيميائية، "الطغرائي"؛ أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسيني بن علي الأصفهاني (١٠٦١-١١٢١م)، والطغرائي نسبة إلى انشغاله بكتابة الطرة بالقلم الجلي أعلى الكتابات والمناشير متضمنة اسم الملك وألقابه.

فقد صرف الطغرائي جل ماله وحياته في محاولة تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب وفضة وتحضير الإكسير، ووضع الطغرائي مؤلفات كيميائية كثيرة يأتي على قمتها من حيث الأهمية كتاب "جامع الأسرار" في الكيمياء؛ حيث بيّن فيه وشرح مدى تأثره بجابر بن حيان، لتمكنه من الصنعة بخلاف كل من اطلع على تراثهم الكيميائي من اليونانيين والمسلمين، وانتهى إلى تمجيد جابر.

ولم يتوقف تأثير جابر بن حيان على الكيميائيين المسلمين فحسب، بل امتد هذا التأثير إلى العالم الغربي وأسس علم الكيمياء الحديثة.

لقد جاء "المسيو بارتيلو" في الجزء الثالث من كتابه "الكيمياء في العصور الوسطى"، المنشور في باريس عام ١٨٩٣م، بتحليل دقيق للكيميائيين العرب. ويعتقد أن كل مادتهم يمكن تقسيمها إلى قسمين أحدهما، إعادة تعبير عن بحوث الكيميائيين الإغريق في الإسكندرية، والثاني بحوث أصيلة. ويعتبر كل هذه المادة الأصيلة، أثرًا من آثار ما قام به جابر بن حيان، الذي يصبح بذلك في الكيمياء، في مكان أرسطو من المنطق، وينشر بارتيلو في كتابه ستة مؤلفات لجابر اعتبرها ممثلة لكل المادة الكيميائية العربية التي أدت إلى قيام علم الكيمياء الحديث كما يقول ديلاسي أوليري.

ولقد ترجمت مؤلفات جابر إلى اللاتينية في وقت مبكر بمعرفة "روبرت الشستري" (١١٤٤م) و"جيرار الكريموني" (ت١١٨٧م). وترجم أيضًا "مجموع الكمال" لجابر بن حيان إلى الفرنسية سنة (١٦٧٢م)، ومثلت هذه المؤلفات، الأسس المهمة التي قام عليها علم الكيمياء الحديثة.

من كل ما سبق يمكننا القول، إن جابر بن حيان، صاحب مدرسة كيميائية ممتدة، قدمت إنجازات علمية موثقة (بتطبيق المنهج التجريبي)، وكانت بمثابة الأسس التي عملت على تطور الكيمياء الإسلامية فيما بعد عصر جابر، وأسست علم الكيمياء الحديث. ■

(*) أكاديمي وباحث مصري.

hiramagazine.com

د. عبد الإله بن مصباح*

جانب الطور الأيمن

يقول الأستاذ فتح الله كولن بخصوص أهمية الإشارات الكونية الواردة في القرآن وآفاق دلالاتها العلمية: "ما أخبر به القرآن بشكل رؤوس أقلام مختصرة ومركّزة حول بعض الحقائق العلمية، أشياء مدهشة لا يمكن تجاهلها"[1]. وفعلاً هي أشياء مدهشة تلك الإشارات القرآنية التي جاءت في خباياها دلالات عميقة على حقائق علمية لم تفهم إلا مؤخرًا. ومن بين هذه الإشارات ذكر كتاب الله لجانب الطور الأيمن.

فقد ورد ذكر جانب الطور الأيمن في موضعين من كتاب الله في قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾(مريم:٥٢)، وفي قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ﴾(طه:٨٠)، ووردت في سورة القصص الإشارة إليه بالجانب الغربي، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ﴾(القصص:٤٤). فما الدلالات العلمية التي تحملها هذه الإشارات القرآنية بخصوص أسرار حركة الجبال على سطح الأرض؟

من المعلوم أن تحديد يمين الشيء من شماله، لا يتأتى إلا إذا عُلم أمامه من خلفه، وذلك من خلال حركته أو شكله. فكيف يخاطب كتاب الله بجانب الطور الأيمن، علمًا بأن الطور -وهو جبل في صحراء سيناء- إنما هو كتله صخرية لا يُعرف لها أمام من خلف؟ ذلك هو السر الذي يجب البحث فيه من خلال تلك الإشارات المركّزة، التي جاء بها إخبار الوحي في شكل رؤوس أقلام مختصرة في بضع كلمات، والتي احتاج العلم لتوضيح الرؤية حولها إلى آلاف الصفحات من

البحوث والدراسات المتخصصة.

فآخر ما وصل إليه العلم اليوم بشأن ديناميكية الجبال، هو الإقرار بأنها متحركة تمامًا كما يصفها كتاب الله في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(النمل:٨٨). ذلك الوصف الذي قد يظن المتوقف عنده، أنه من قبيل التذكير بمشهد من مشاهد يوم القيامة على اعتبار أنه جاء تبعًا للآية التي سبقت في سياق تلك المشاهد. لكن ورود هذا التشبيه بين مر الجبال ومر السحاب مقرونًا بفعل حسب الذي يفيد الظن، ينفي ذلك لأن في الآخرة لن يكون هناك مجال للظن، بل كل ما سيراه الإنسان هو من صميم اليقين. كما أن ختم الآية بقوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يدل على أن هذا التشبيه هو من مظاهر التذكير الإلهي للعباد بقدرته المطلقة، التي تحمل في مضمونها إشارة إلى نسبية الإدراك البشري لظواهر الكون في هذه الحياة الدنيا. فهي إشارة إذن، إلى أن الإنسان -وهو محمول فوق هذه الجبال التي تتحرك مع حركة الأرض- لا يرى مَرّها، وإنما يرى مر السحاب الذي يقابله في السماء. تمامًا كما لو كان هذا الإنسان محمولاً فوق السحاب لما رأى حركة السحاب، بل لحسبه جامدًا وهو يمر مر الجبال التي يراها من هناك. وهذا الوصف نجد له شبيهًا في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ﴾(الكهف:١٧)؛ حيث نحسب من خلاله أن الشمس هي التي تطلع على الأرض، علمًا بأن الأرض -وهي تدور حول نفسها- تجعل الإنسان يرى الشمس تطلع، مما يدل على أن هذه الأوصاف وأمثالها، هي إشارات إلى نسبية الإدراك البشري لمجريات الأمور. تمامًا كما لو كنت راكبًا في قطار يسير وعلى السكة المجاورة قطار متوقف، إذا رأيته حسبت نفسك متوقفًا وهو يسير. فهذا الذي يرمز إليه كتاب الله من خلال هذه الإشارات الكونية إنما يدل على أن الله ﷻ أضفى صفة النسبية على كل مجريات الكون، وأبقى المطلق لذاته وقدرته العلية.

وحتى نستبين أسرار ما تخفيه هذه الإشارات، سنقف -وبالله التوفيق- على إظهار تفاصيل حركة الجبال التي

الجبال التي نصبت فوق صفائح الأرض، تتحرك مع تحرك الصفيحة التي تحملها وفق اتجاه لا رجعة فيه، الشيء الذي يحدد لها الأمام وبالتالي اليمين من الشمال. وبذلك تكون الجبال تمر في اتجاه واحد محكم بحركة الصفيحة التي تحملها كما يمر السحاب.

حراء

هي أعقد مما صورناه، معتمدين في ذلك على فهم الآيات التي وردت في شأنها، من خلال توظيف ما جاءت به الكشوف العلمية الحديثة من مفاهيم توضيحية جديدة.

ما جاءت به الكشوف العلمية

لما دعانا الله تعالى للنظر إلى الجبال كيف نصبت، دعانا كذلك للنظر إلى الأرض كيف سطحت، لأن هذا السطح الذي يُلبّس الأرض هو الذي يحمل الجبال، فقال في ذلك: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(الغاشية:١٧-٢٠)؛ فقد يحسب المشاهد أن سطح الأرض قطعة واحدة لا تتجزأ، لكنه مجموعة قطع متحركة تكونت بكيفية دقيقة وتطورت في شكل بديع، لتظل في حركة دائمة ونشاط مستمر، كما نجد الإشارة إلى ذلك واردة في قوله تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾(الرعد:٤). فالأبحاث الجيولوجية أثبتت أن الأرض عند ميلادها، لم تكن سوى كتلة ملتهبة كُوّرت من جرّاء تكتل مواد انصهرت جميعها في شكل كرة كانت حرارتها تفوق بكثير ما هي عليه الآن. ثم بعد ذلك بملايين السنين، بدأت تبرد شيئًا فشيئًا، فتصلب سطحها وتكوّنت القشرة الأرضية التي كان سمكها ضعيفًا، ثم ارتفع تدريجيًّا مع تبرّد الأرض وتصلُّب المواد التي تحاذي السطح، بينما بقيت الطبقة السفلية تحت السطح في انصهار دائم، مما جعل طبقة السطح تبقى متحركة فوقها. فوقعت على إثر ذلك، تشققات وتصدعات قطّعت هذا السطح إلى قِطَع أعطت فجوات تُقذف منها المواد المنصهرة تحت تأثير الضغط المفرط والحرارة الهائلة، بحيث كلما تدفقت

hiramagazine.com

هـذه المـواد المنصهـرة علـى السـطح، انخفضـت درجة حرارتهـا فتصلّبـت بدورها والتحمت بقطعه ممددةً إياها فـي اتجاهـات أفقيـة مختلفـة، ومرسـية جبالهـا بإلقاءاتها المتراكمـة فوقـه، كما نستشـف ذلك من قـول الله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَـا وَأَلْقَيْنَـا فِيهَـا رَوَاسِـيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾(الحجر:١٩).

وبذلـك ارتفـع سـمك السـطح، وتشـكلت الجبـال بفعـل الإلقـاءات المتراكمـة فوقـه. فتحـددت فـي أماكن معينـة مـن هـذا السـطح خطـوط الصـدع، مقطعـة بذلك الأرض إلـى قطـع محاذيـة لبعضهـا تتحـرك فـي شـكل صفائـح فـوق صهـارة لزجـة. وظلـت أنشـطة الـزلازل والبراكيـن مرتبطـة بالحركـة الناتجة عن هـذه التقطعات، بحيث نجد التوزيـع الحالي للقارات فوق هذا السـطح، إنمـا نتـج عـن التحـولات الناجمـة عن تحـرك الصفائح التـي قـد تكـون بحريـة أو قاريـة أو مزدوجـة تتحرك كل منها صوب وجهة لا رجعة فيها.

إلا أن حركـة هـذه الصفائـح لا نلمسـها نظـرًا لشـدة بطئها؛ إذ لا تتعدى في أقصى الحالات بضـع سنتمترات في السـنة. ويمكن تشـبيه الواحدة منها، ببسـاط صخري ينشـأ عند حزام الصدع في مناطق الاتسـاع، حيث تتنافر قطـع السـطح وتطفـو الصهـارة فتلقـى علـى جنبـات الصفائـح، ثـم تبـرد تدريجيًـا وتقسـو، لتكـوّن تراكمـات بركانيـة تمـد الصفيحة أفقيًا فـي اتجاهات محددة بحركة الصفيحـة. فـإذا وصل مـد الصفيحة بعد مئـات الملايين من السـنين إلى نقطة النهاية في الجانب المعاكس حيث التصـادم مـع صفيحـة أخـرى، انضـوى طرفهـا تدريجيًـا تحـت هذه الأخيـرة (Subduction)، وتناقـص بانصهاره من جديـد فـي باطـن الأرض. وهو جانب ممـا يحمله معنى قولـه تعالـى: ﴿أَفَـلاَ يَـرَوْنَ أَنَّـا نَأْتِـي الأَرْضَ نَنْقُصُهَـا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾(الأنبياء:٤٤).

بين الوصف القرآني والكشف العلمي

إذن، فالجبـال التـي نصبـت فوق هذه الصفائـح، تتحرك مـع تحـرك الصفيحـة التـي تحملها وفق اتجـاه لا رجعة فيـه، الشـيء الـذي يحدد لها الأمـام وبالتالـي اليمين من الشـمال. وبذلـك تكـون الجبـال تمـر فـي اتجـاه واحـد محكم بحركة الصفيحة التي تحملها كما يمر السحاب. فالسـحاب ينشـأ فـي أماكـن تبخـر الميـاه فـي البحـار والمحيطـات، ثم يسـاق بالرياح في اتجـاه معين، إلى أن ينتهـي بنزولـه مطـرًا كمـا تشـير إلـى ذلـك الآية فـي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِـلُ الرِّيَاحَ بُشْـرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّـى إِذَا أَقَلَّـتْ سَـحَابًا ثِقَالاً سُـقْنَاهُ لِبَلَـدٍ مَيِّـتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾(الأعراف:٥٧)؛ وهـي الآيـة التـي تفيـد أن السـحاب يسـاق -أي يمر- في اتجاه واحد كما تسـاق مياه الأنهار بموجـب عامل الانحـدار انطلاقًا من منابعها التي تتركها فـي الخلـف ومـرورًا بالأراضـي التـي ترويهـا، إلـى أن تنتهـي فـي مصباتهـا، مصداقًـا لقوله تعالـى: ﴿أَوَلَـمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُـوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ﴾(السجدة:٢٧). وبما أن النـص القرآنـي يقر بـأن حركة الجبال هي شـبيهة بحركة السـحاب، وبكون السـحاب يسـاق في اتجـاه واحد كما تسـاق مياه الأنهار من المنبـع إلى المصب، فإن المنطق يفـرض أن تكـون لـكل مـن هـذه الظواهر وجهـة واحدة تسـير إليهـا، انطلاقًا من نقطة البدايـة التي تتركها خلفها، إلى نقطة النهاية التي تظل أمامها.

ولمـا كانـت الجبـال تمـر بدورهـا وفـق هـذا التوجّـه مُرسـية سـطح الأرض بقاعـدة موتَّـدة فـي القطعـة التـي تُقلهـا، فـإن وجهتها تكون ألزمت بوجوب تحديد جانب أيمن وهو ما على يمين الاتجاه الذي تسير فيه الصفيحة التـي تحمـل الجبل، وجانب أيسـر وهو ما على شـماله، تمامًا كما للوادي ضفة يمنى وضفة يسـرى، وكما للبشـر يميـن ويسـار. فـإذا كان جبـل طـور محمـولاً علـى شـبه جزيرة سـيناء، التي هي جزء من الصفيحة الإفريقية التي تتجه نحو الجنوب على طول حزام الصدع الفاصل بينها وبين صفيحة الجزيرة العربية التي تتحرك نحو الشـمال، فـإن الجانـب الغربي للجبـل المنصوص عليه في سـورة القصص: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، والمقابل لأرض مصر، يكون وافق جانب الطور الأيمن.

أوجه الشبه بين حركتي الجبال والسحاب

من خلال هذا التحليل، وبوقوفنا على تحليل مواصفات كل مـن الجبال والسـحاب، نجـد أن الجبال في الأرض

hiramagazine.com

يقابلها السحاب في السماء. وعليه فقد يتصور المتأمل لهذا التشبيه -الذي جاء به كتاب الله- أن المقصود بمر الجبال وهي الثابتة على الأرض؛ دورانها معها، كما نرى السحاب من الأرض يمر في جو السماء، وهذا وارد. إلا أن المعاينة الدقيقة لهذه المقابلة، تفرز عن أوجه خفية ومعقدة للشبه تتعدد بتعدد القواسم المشتركة بين السحاب والجبال. فإذا كان السحاب هو كتل هوائية من الغلاف الغازي للأرض، محمولة في شكل قطع تحركها تيارات الرياح الناتجة عن الفارق في الضغط والكثافة بين مستويات جو الأرض الغازية، فإن الجبال هي أيضًا كتل من الغلاف الصخري للأرض، محمولة على قطعه المتجاورات التي تحركها تيارات الحمل الحراري الناتجة عن فارق الضغط والكثافة بين مستويات باطن الأرض النارية.

هذا عن الشكل، أما عن الحركة؛ فكما أن السحاب يبدأ سيره بحركة عمودية ناتجة عن تبخر مياه سطح الأرض التي تصعد في شكل كتل هوائية دافئة إلى الأجواء الباردة، ثم تتحرك أفقيًا بعد تضاؤل كثافتها إلى أن تصل رطوبتها إلى درجة التشبع فتنتهي بنزولها مطرًا، كذلك الجبال تبدأ نشأتها من حركة عمودية ناتجة عن مور باطن الأرض الذي يصعّد الصهارة المحركة لقطع السطح، فينجم عن ذلك إما التواء طبقات القشرة الأرضية تحت وقع الضغوط الجانبية وارتفاع جزءها الأعلى وتلك هي الجبال البنيوية، وإما تدفق الصهارة التي تقسو على السطح بعد تبردها وتشكل نتوءات مرتفعة وهي الجبال البركانية. ثم تتحرك كل من هذه الجبال أفقيًا مع حركة الصفائح التي تقلها، إلى أن تنتهي بعد مئات الملايين من السنين بالانضواء والانصهار في باطن الأرض، أو بالتعرية على سطحها.

وعليه، فإن العناصر الأساسية في تحريك كل من السحاب والجبال، تكاد تكون مطابقة لبعضها. فجاءت الآية الكريمة على إثر ذلك، مشبهة حركة الجبال بمر السحاب وليس بمروره لبيان القصد من المعنى، لأن المر، هو سير لمرة واحدة في اتجاه واحد صوب وجهة لا رجعة فيها، أما المرور، فقد يكون لعدة مرات وفي اتجاهات مختلفة. فكان المقصود -والله أعلم- بذلك التشبيه، إرجاع أبصارنا إلى تلك الحركة التي يبديها لنا السحاب بين نشوئه ونهايته، لعلنا إذا استوعبناها ببصائرنا، وجدناها دالة بالحس والمعنى على حقيقة حركة الجبال؛ تلك الحركة الحثيثة التي لا تلمس إلا بقياسات جيوفيزيائية دقيقة، نظرًا لعظمة بنيان الجبال وطول أعمارها وبطء حركتها، مقابل محدودية أبصارنا وقصر أعمارنا وسرعة حركتنا، فنحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب.

وبذلك يتضح لنا أن مفهوم جانب الطور الأيمن المنصوص عليه في القرآن الكريم، يعني الجانب الأيمن للجبل. وهذا تلميح علمي إلى حقيقة حركة الجبال، يتناسب مع تطور الفهم وتقدم المعرفة؛ بحيث وإن لم نقصد من خلال هذه الإشارات الوقوف على هذه الحقيقة، إلا أن قراءتنا لها بمعطيات علم هذا الزمان، جعلنا ندرك من سياقها هذا العمق المعنوي الذي يعطي دليلاً ملموسًا على تحرك الجبال وفق اتجاهات قطع السطح التي تقلها، كما يتحرك السحاب وفق اتجاه الرياح التي تسوقه. وهي الحقيقة التي لم يتنبه الإنسان إليها إلا بعد اكتشاف نظرية الصفائح التكتونية (Plate Tectonics) من قبل العالم الألماني "Alfred Wegner" سنة ١٩١٠م، والتي اكتسبت مصداقيتها بعد سنة ١٩٦٠م، حيث مكنت كبريات الرحلات الاستكشافية لأعماق البحار، من توضيح المفاهيم حول كيفية تحرك قطع السطح. فوضعت بذلك الخريطة البنيوية لسطح الأرض، وسطرت عليها الاتجاهات التي تتحرك فيها كل قطعة من قطعه. فجاء ذلك شاهدًا على البُعد العلمي للقرآن الذي يريد من خلال تلك الإشارات المركّزة، استنهاض همة البحث لتقويم فكر الإنسان على درب الاستقامة الكونية. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

الهامش

(١) أسئلة العصر المحيرة، لمحمد فتح الله كولن، القاهرة، دار النيل للطباعة والنشر، ص:٧٩.

hiramagazine.com

أديب إبراهيم الدباغ*

الحياة زينة، والجمال فتنة، والمال غرور، والأولاد امتحان، وكل أولئك من الدنيا وإلى الدنيا يعودون.. أما الناجحون ومن الفتن خارجون، وقلوبُهم بالحق والحقيقة مرتبطة، فلا ينكصون ولا يتأخرون، وعهدَهم وميثاقهم لا ينكثون.

الموازين

من أسرار الروح

١

الأعماقيون من رواد الروح وعشاق الأغوار منهم، قد يحظون -وهم في استبحار روحي، ومن خلال الموج الهادئ، واللجِّ الساجي- بأسرار مذهلة لم تكن لتخطر لهم على بال، فيها الكثير من رهبة الغموض والخفاء، وسحر الجمال، وكبرياء الجلال، مما لا يَقوون معه من شدة الذهول على الهمس به حتى لأنفسهم فضلاً عن غيرهم، لأنهم لا يجدون الكلام الذي يستطيع أن يستوعب المعاني العظيمة التي منحتهم الروح إياها، لعجزهم عن حصر ما لا يحصر، وتقييد ما لا يقيد، بعبارات مهما بلغت من الدقة فإنها لا تبلغ شأو هذه المعاني الكبيرة والعظيمة.

والروح وإن كانت محجَّبة عنا بألف حجاب، غير أنها تظل تتراءى لنا بصور مختلفة وأشكال متنوعة فتنبئ بذلك عن نفسها، وتومئ إلى حضورها، وذلك بوسائل كثيرة وأساليب مختلفة؛ كالرؤى والأحلام، وقوة الخيال وسعته، وصدق الظنون، ورهافة الأحاسيس والمشاعر، والإلهام الذي لا يخطئ، والتكهن بما سيكون، وتوقع وقوع الأحداث

قبل وقوعها... وفي الروح يرقد ماضي الإنسان، وفيها تحتدم صراعات حاضره، وإلى القابل من أيامه تومض الروح وتومئ. وعلى أصحاب الأرواح العظيمة من بني البشر تتنزل العطاءات الإلهية، وتهبط الإيحاءات المقدسة، لتربية الأمم والشعوب والأقوام... وفي الروح تتصفى الأفكار، وتشحذ العقول بالطاقات، وتتزود الأذهان بالإرادات... ومن جمال الروح يولد كل جمال إنساني من شعر وأدب وفن وحكمة ومنطق وفلسفة، ولطبيعتها الجمالية، فهي منزهة عن كل أنواع الحقد والكراهية، فلا شيء يقرب بين أصناف البشر ويؤاخي فيما بينهم مثل الروح التي يشتركون جميعًا باستمداد الحياة منها.

والروح لا تبلى إذا بلي جسد الإنسان بعد الموت، لأنها ليست جسمانية قابلة للتحلل والبِلى، بل هي لطيفة ربانية هبطت إلى الجسد من مكان عَلٍ، وهي ذاهبة إلى هذا المكان عندما تنتهي مهمتها في هذا الجسد، تاركة إياه للتراب الذي جاء منه. وكنه هذه الروح من المغيبات التي يقْصُر علمنا عن القطع فيه برأي، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(الإسراء:٨٥). وكوننا لا نعلم كُنْهَ الروح، لا يمنع ذلك من أن نتعشق جماليتها في الإنسان والكون والحياة، وأن نتابع بشغف صور تشكيلاتها الجمالية وهي تتعرض لنا بمزيد من الاستهواء والإغراء والإبهار، فتتحول بذلك إلى جملة من الأحاسيس المرهفة، والمشاعر الراقية، والسلوك الرفيع، والخُلق العلي. وحتى لو كان التفسخ المريع قد دب في أوصال المرء، وأحاطت به سفالات التدني والسقوط، فهذا ليس مبررًا لليأس من كونه قادرًا على التطهر من أرجاسه، وذلك بالقليل من التوجه إلى "الروح" التي بين جنبيه، والاستعانة بقواها التطهيرية لتطهر نفسه، وتنتشله من الهوة التي كان قد تردى فيها، فلا يعود -كما كان- نفسًا ضالة تائهة في القفر العاري من القيم، والذي من شأنه تحطيم النفس وسحقها دون رحمة.

ولقدسية الروح -ولأنها من أمر الله- سمى الله تعالى قرآنه "روحًا": ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا

الروح وحدها يمكنها أن تأخذنا عن أنفسنا لنراها من الخارج، فنتقصى عيوبها، ونهتدي إلى نقائصها... وإذا ما فاضت الروح وألقت بعلومها تحت أعيننا، فإننا نستطيع عند ذاك أن نفهم من أين تأتينا القوى الحيوية التي نصارع بها الزمن ونتغلب على ويله الوبيل.

كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(الشورى:٥٢)، وسمى كبير ملائكته جبريل عليه السلام "روحًا". فتجليات هذه الروح يمكن تلمسها في حقائق الوجود والكون والطبيعة والحياة، والتي يفني الإنسان عمره في الكشف عما هو غائب منها عنه. ففي الروح تكمن أعلى الحقائق وأصدقها وأعظمها، فالألمعية والذكاء والعبقرية إنما هي إشعاعات روحية تخترق رؤوس أصحاب العقول المفكرة. والروح تتكلم إذا أرادت الإفصاح عن بعض كنوزها بالرمز والإيماء والإشارة، وتترك للعقول حرية إدراك ما وراء هذه الرمزيات والإيحائيات والإشارات، وعلى قدر الجهد المبذول في التفكر، تأتي الحقائق تباعًا.

وللروح أنفاس يفوح منها عبق حياة الأكوان، وروائح الجنان، وهي لا تتوقف أبدًا عن نث رذاذ مطهر من المروج اللاهوتية المغيبة. وليس للروح حدود تقف عندها، ولا سدود تصدها عن اختراق المحجبات. والروح إذا ماجت وعصفت، أتت الأرواح المصروعة فأقامتها من صرعتها، والهامات المنكوسة فأقامتها من منكوسها، والأفئدة العطشى فروتها وسقتها، والأفكار النائمة فأيقظتها... وهي وحدها يمكنها أن تأخذنا عن أنفسنا لنراها من الخارج، فنتقصى عيوبها، ونهتدي إلى نقائصها... وإذا ما فاضت الروح وألقت بعلومها تحت أعيننا، فإننا نستطيع عند ذاك أن نفهم من أين تأتينا القوى الحيوية التي نصارع بها الزمن ونتغلب على ويله الوبيل. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

hiramagazine.com

د. ناصر أحمد سنه*

فوضى أم نظام مُحكم؟

ظهر في أوائل القرن العشرين مبدأ أساسي يقول إنه لا يوجد قياسات "لانهائية الدقة" أو "حتمية النتيجة"، بل على العكس، يجب أن تتضمن القياسات درجة من الارتياب (الشك) في القيم المتحصل عليها. وذلك لأن أي أداة قياس، لا يمكن أن تسجل نتائجها بدقة لانهائية، لأنها تتطلب قياسات وشروطًا ابتدائية لا نهائية. لكن باستخدام أداة قياس أكثر دقة، يمكن التقليل من معدل الارتياب في التنبؤات النهائية بمقدار غالبًا

ما يكون صغيرًا إلى الحد الذي يُحتاج إليه لهدف معين. وبات هدف العلوم التجريبية، هو زيادة الدقة المطردة لأدوات القياس لتقترب من الدقة المطلقة، ولكن لن تصل إليها أبدًا.

بادر الفيزيائي والرياضي "هنري بوان كاريه" (١٨٥٤-١٩١٢م) في هذ المجال، وذهب إلى أن "انفجار" الارتيابات الصغيرة في الشروط الابتدائية إلى ارتيابات ضخمة في التنبؤات النهائية، باقٍ حتى لو كانت الأولى قد انكمشت إلى أصغر حجم يمكن تصوره. وأصبحت "الحساسية للظروف الأولية" والموجودة رياضيًا في الأنظمة المدروسة بواسطته، تعرف باسم "عدم الاستقرار الديناميكي" أو "الفوضى". وباتت التنبؤات الرياضية بعيدة المدى "للأنظمة الفوضوية" لا تعدو أن تكون في دقتها فرصة عشوائية. مرت عقود حتى تم إدراك قيمة اكتشافاتها من قِبل المجتمع العلمي، وذلك لأن أكثر المجتمع الفيزيائي، كان مشغولاً باكتشافات جديدة في "ميكانيكا الكم" والامتداد الفيزيائي في عالم الذرة.

الفوضى والبنى المنظَّمة

تبين أن الشروط الابتدائية والارتيابية في القياس، هي سبب حدوث "النظم الديناميكية غير الخطية"، أو "عدم الاستقرار الديناميكي"، أو "نظرية الفوضى سابقًا". فالاسم الأول (النظم الديناميكية غير الخطية)، يعتبره كثيرون اسمًا رسميًّا للعلم الجديد. ولإعطاء "جماهيرية"، اختير لفظ "كايوس" (Chaos)؛ أي "الفوضى"، وهذا العلم هو أحد أبناء الكمبيوتر. فمن خلال أحد علماء الطبيعة الجوية (إدوارد لورنتز) وكان صديقًا لـ"فون نيومان" الأب الروحي للكمبيوتر، تولد لديهما أمل أن يستخدم الكمبيوتر في التنبؤ بالطقس الجوي أسوة بتنبؤ الفلكيين بالظواهر الفلكية. وتم إجراء التجارب لتطبيق الفكرة، وإذا بظاهرة الفراشة تبدو صادمة؛ فكلما أجرى تجربة لنفس المعاملات، تكون النتائج مختلفة تمامًا، حتى شك في جهازه. إلا أنه اكتشف أن الخطأ في أي مُعامل مهما كان طفيفًا، لا يمكن للأجهزة أن تحس به، يتحول بعد فترة وجيزة ليسبب آثارًا خطيرة تجعل التنبؤ بالطقس مستحيلاً. وقضت ظاهرة الفراشة على أحلامهما في هذا المجال. ولكن تولد عن هذا الفشل، ظهور علم جديد.

هذا العلم -الذي وصفه البعض بالثورة الفيزيائية الثالثة بعد فيزياء نيوتن وأينشتاين- يصف ظواهر وبُنى منظَّمة واسعة النطاق. ويبدأ مما توقّف عنده العلم التقليدي. فمنذ شروع العلم في حل ألغاز الكون، عانى عجزًا بشأن فهم ظواهر الاضطراب، مثل تقلّبات المناخ، وحركة أمواج البحر، وتقلّبات الأنواع الحية وأعدادها، والتذبذب في عمل القلب والدماغ... فذلك الجانب من الطبيعة الذي يبدو غير منظّم أو غير منسجم أو غير متناسق أو مفاجئ أو انقلابي، أعجز العلم. لكن ذلك العجز تغيَّر تدريجيًّا منذ سبعينات القرن العشرين، عندما سعت كوكبة من العلماء بالاهتمام بأمر هذا "الاضطراب وفوضاه"، وحاولوا الإمساك بالخيوط الجامعة للظواهر التي تبدو غير منضبطة، وتتداخل وتتفاقم بين المجالات المختلفة ومنها:

• غالب ظواهر الطبيعة -إن لم تكن كلها- غير خطية العلاقات، ويترتب على ذلك الهيولية (استحالة التنبؤ) وهي أمر مختلف عن العشوائية، فلها هيكل منضبط يحكمها. والأنظمة البيولوجية محكومة أيضًا بآليات لا خطية، حيث يرى "روبرت ماي" أن كل نظام لا خطي بسيط، لا يتمتع بالضرورة بخصائص ديناميكية بسيطة.

• آمن بعض العلماء بأن وجود عدم الاستقرار الديناميكي في الفيزياء، يعطي الكون "سهم الزمن"؛ وهو التدفق غير العكسي من الماضي إلى المستقبل.

• نظرية "الهيولية" في علم الفلك مجال مزدهر، ويعتقد أن من نتاجها، الفراغات داخل حزام الكويكبات، ومدار قمر واحد على الأقل من أقمار كواكب المجموعة الشمسية، وكذلك مدارات بعض الكواكب ذاتها هيولية. وبإمكانها تفسير ما للشمس من أنشطة عنيفة غير متوقعة. بل إن أسطح كافة النجوم تبدو على هذه الشاكلة؛ فالنجوم النيترونية تقذف بين الحين والآخر برفقات عشوائية من أشعة إكس لا يعرف لها سبب. وأظهرت بعض النجوم المتغيرة سلوكًا هيوليًّا، أن بعض نجوم مجرتنا ومجرات أخرى، ذات مدارات هيولية، كما أن

hiramagazine.com

ثمة هيولية كامنة في النظريات النسبية العامة. ولعل من أهم النتائج تفسير البقعة الحمراء في المشتري، وهي منطقة من الاضطراب في جو الكوكب، حيرت العلماء منذ عصر "جاليليو" الذي كان أول من شاهدها.

• انعكاس محور المجال المغناطيسي للأرض على دورات مدتها من ١٠٠-١٥٠ ألف عام، وهذا التغير يبدو عشوائيًا، ولذا فليس من المستبعد أن يكون هيوليًا.

• قوانين الفيزياء الكوانتية هي قوانين الريبة بجوهرها، ومع ذلك، فقد بينت تجارب حديثة على الحاسوب لذرة هيدروجين متأينة إمكانية الرجوع إلى الحالة البدئية بالضبط، بينما لم يستطع الحاسوب تحقيق ذلك وفق الحسابات الكلاسيكية. وتطرح هذه التجارب جانبًا دقيقًا من مفهوم الفوضى على المستوى الكوانتي لا يزال العلماء في حيرة من تفسيره.

• من أهم نتائج دراسة إلكترونات المواد الصلبة هي أنه؛ كلما كانت الفوضى أكبر، كانت الخصائص الجهارية لمادة أقل تعلقًا بتفاصيل بنيتها المجهرية. ففي جسم بلوري لا تشوهات فيه، يكون الإلكترون الذي يتصف بكلية الحضور في وسط فوضوي، متوضعًا. عندما يدرس توزع كرات البليارد على الطاولة انطلاقًا من تشكيل ثابت، نصل إلى توزع فوضوي. فكل كرة على طاولة البليارد يمكن أن تعيد نظريًّا مسارها بشكل عكسي حتى النقطة البدائية.

• بحث التوقعات الفلكية طويلة الأجل، والتي كان مصيرها الفشل "المحتوم"؛ حيث لا نستطيع التنبؤ -رغم الحشد التقني- بما سيكون عليه الطقس إلا لفترة محدودة. فعملية التنبؤ بالظواهر الطبيعية ذات القوانين المعقدة والمتشابكة، تبدو مستحيلة. وبسبب "تأثير الفراشة" بات القبول بدقة التوقعات المناخية فقط في المدى القصير، لكن التوقعات بعيدة المدى -حتى لو استثمرت أكثر الطرق الكمبيوترية تطورًا- فلن تكون سوى تخمينات.

• ليس الطقس وحده الذي يستعصي على التنبؤ للمدى الطويل، لكن كل ظاهرة تتمثل في نموذج كرة، تتدحرج على مستوى خشن. إن معادلات نيوتن تمكّن من تقدير سرعة الجسم بعد فترة من حركته، وهو تحت تأثير الفرق بين قوة الدفع وقوة الاحتكاك السطحي. ولكن لو تصورنا أن السرعة تؤثر بدورها في قوة الاحتكاك -بحيث تزيد هذه القوة مع زيادة السرعة وتقل بانخفاضها- فإن الكرة حين تنزع لزيادة سرعتها، تزيد -تبعًا لذلك- قوة الاحتكاك، فتقل محصلة القوى وتأخذ الكرة في التباطؤ. فالتسارع يؤدي إلى التباطؤ، والعكس بالعكس، وما ذلك إلا لأن العامل المؤثر -وهو الاحتكاك- يتأثر بدوره بالعامل المتأثر (التغذية المرتدة). فإذا كانت درجة الارتباط بين المؤثر والمتأثر ضئيلة، فلن ينتاب النظام اضطراب، وتسير الكرة سيرًا حسنًا. ومع زيادة درجة الارتباط، تأخذ الظاهرة في الخروج عن حالتها الطبيعية، وبعد درجة أكبر من الارتباط، لن يجدي نفعًا تطبيقُ معادلات الحركة لـ"نيوتن" لتقدير سرعة الكرة بعد حين من الزمن مهما كانت ضآلته، ذلك رغم استمرار هيمنة تلك المعادلات على الظاهرة. فالمعاملات المؤثرة في الطقس متعددة، كالضغط الجوي والحرارة والرطوبة، إلا أن هذه المعاملات مترابطة بعضها ببعض برباط التغذية المرتدة، لتجعل من المستحيل التنبؤ بما سيكون عليه الحال لطقس معين في مكان معين، بعد فترة تزيد على عدة أيام، أي قبل أن تدخل ظاهرة الفراشة في سيناريو الأحداث بصورة جدية.

• نفس الشيء ينطبق على تصاعد الدخان من فنجان قهوتك وتكون سحابة في السماء، وتطاير ورقة شجر أثناء عاصفة، وحالات عدم استقرار الشبكات الكهربائية، وتشوش قنوات الاتصال... باختصار، كل ظاهرة نظنها "عشوائية" تستعصي على التحليل العلمي.

• هذا العلم أزال الحواجز بين التخصصات المختلفة، فعني بالتحولات في الأنواع الحية وأعدادها. فتنمو النباتات وتولد الحيوانات، مُشكلة أنظمة مفتوحة تتبادل المادة والطاقة مع محيطها وهي بعيدة عن الاستقرار؛ ومساقط المياه، وتَشكُّل الغيوم وحركاتها، وتبخر المحيطات، وحركة أمواج البحر، وانفجار البراكين، وتشكل السواحل والجبال، ونمو الأشجار، وغير ذلك من ظواهر. فحالة الهيولية، تترجم رياضيًّا على صورة

hiramagazine.com

مجموعة من المعاملات الرياضية قليلة العدد، ومن ثم توضع الحاسوب، فيمكن تمثيل الظاهرة كما تشاء، وما نراه حاليًّا في السينما، من مناظر للأعاصير المدمرة.

• أمكن تفسير موجات الانقراض أو التزايد في أجناس الحيوانات؛ فبيئة تحتوي على أُسود وغزلان لا غير. في حالة معينة، نتصور أن الأسود أقوى بدنيًّا من الغزلان، بحيث تلحق بها خلال عمليات القنص فتقضي عليها بعد حين. لكن الغزلان هي الأسرع فلا تلحقها الأسود، فيكون مصير الأسود هو الانقراض بعد حين. هذان المصيران يمثلان حالتي استقرار للبيئة، ولكن لما تدخل ظاهرة التغذية المرتدة، نأخذ في الاعتبار أن الأسود تفترس الغزلان الضعيفة ولا تلحق الضرر بالغزلان القوية. في البداية يبدأ مجتمع الغزلان في التناقص نتيجة التهام الغزلان الضعيفة فيه، بينما يبدأ مجتمع الأسود في التزايد نتيجة وفرة الغذاء، وجيلاً بعد جيل، تزداد نسبة الغزلان القوية في مجتمعها، بينما تزداد نسبة الأسود الضعيفة في مجتمعها. وبعد حين نجد أن الوضع قد تبدل، إذ يميل مجتمع الغزلان للتزايد، بينما يميل مجتمع الأسود للتناقص بسبب فناء الأفراد العاجزة عن اللحاق بالغزلان. وبعد عدة أجيال أخرى ينقلب الوضع، وهكذا دواليك. وبالطريقة نفسها أمكن في مجال الطب تفسير حالات من انتشار الأوبئة لم تكن قابلة للتفسير من قبل.

• في تجربة أجريت على حركة التدوّم، دُرست دوّامة مبسطة إلى أقصى حد ممكن، وتبين أن المظهر الخارجي الفوضوي لها، ينجم عن تشكيلات متتالية فائقة التعقيد يتناوب فيها النظام والفوضى والتدوّم. ومن جهة أخرى، سمحت طريقة التصفية -وهي نظرية تدرس انتشار وباء أو حريق أو مرض أو غاز- بإيجاد قوانين عالمية تحكم ظاهرات مختلفة، وقد دعيت بقوانين "وباء الفوضى". وتبين من خلالها أن اتصال مجموعتين عبر حدين، كمنطقتي انتشار وباء أو حريق، لا يمكن أن يتم إلا إذا تجاوز نسبة ٦٠٪ في كل منهما تقريبًا. وبالمقابل، فإن التشكل العشوائي لحالات الاتصال بين الخلايا الشعرية الرئوية، يخلق مجموعة من الممرات ذات الحجوم غير المتجانسة، إنما التي تبين تطابقها القصيمي -أي أن كل جزء صغير منها- كان صورة مطابقة للجزء الكبير. ويسمح هذا النموذج الهندسي "الفوضوي" للعلماء، بوصف دقيق لضبط تبادلات الجزيئات الكبيرة بين الدم والأنسجة.

• يمكن تطبيق هذا العلم على الظواهر الاجتماعية والاقتصادية، وعلى العلاقات البشرية الطبيعية. فالإنسان يتعرض لعوامل مادية وبيولوجية ونفسية، وكل نوع يؤثر في الأنواع الأخرى. فيمكن تناول هذه العوامل المؤثرة، ومدى تداخلها مع بعضها، لتحدث تحولاً من حالة الاستقرار إلى حالة اللانظام. فالأزمة النفسية قد تحدث عوارض مرضية والعكس، وحينما يصل التداخل إلى درجة معينة، تصل المنظومة الإنسانية إلى استقرار أفضل. لذا، فعلم النفس سيثري ثراء شديدًا باستثماره مبادئ هذا العلم.

• يصعب تطبيق التنبؤ بالحوادث التاريخية، لأن الباحث التاريخي مهما قويت أدواته، لا يمكن أن يحيط بكافة العوامل مهما كانت متواضعة. فعلى سبيل المثال؛ لم يكن "مالتوس" في رؤيته "لندرة الموارد" ونظرته التشاؤمية بشأن الزيادات السكانية، يدري أن هناك أبحاثًا في الأفق حول طاقة مهولة ستكتشف هي الطاقة الذرية.

هذا وقد ظن الماديون والملحدون الذين يؤمنون بالحتمية والميكانيكية الصارمة في الكون، أن الكون ومن ثم الإنسان، يقوم -آليًّا- وحده، ولا حاجة -في زعمهم- لتعليمات إلهٍ، وتكليفاته، وثوابه أو عقابه. فخابوا وخسروا؛ لأن الله ﷻ بقيوميته يفعل ما يشاء، ووقت ما شاء، وأينما يشاء، وكيفما يشاء، وهو القائل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۞ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾(الحجر:٢١-٢٤). ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiramagazine.com

د. صهيب مصباح*

أصالة الحوار ومحوريته في الإسلام

عندما يتأمل الإنسان طبيعة الحوار وفقراتها، لا يستطيع أن يتجاهل أن الإسلام -منذ بدايته- دين يتوجه بالخطاب للعالم كله. ومن ثم فهو دين تفاعُل واتصال وخروج للآخرين، وهو دين محجج بالحجج والبراهين والأدلة -الغيبية، والعقلية، والكونية، والإنسانية، والتشريعية- على صدقه وقوته وقدرته على التفاعل مع الآخرين، على أعلى مستويات الجدال والحجاج العلمي والأدبي الرصين، بحثًا عن الحق وبناء عليه. وعندما نتحدث عن الحوار في الإسلام، فإننا نتحدث عن طبيعة من طبائع الإسلام، وخاصة من أعظم خصائصه الأصيلة؛ فمسألة الحوار والتواصل مع الآخرين، ليست مسألة تبعية نسبية في طبيعة الإسلام، وإنما هي مسألة محورية في المنظومة الدعوية الإسلامية، لكون الإسلام دينًا للناس أجمعين.

ولا يمكن أن نتصور دينًا عالميًّا بخطابه وتوجيهاته وأهدافه، كالإسلام. فهو دين يبحث عن المتحاورين والمتواصلين بشتى الطرق، ليبين لهم عقيدته وشرعته وقيمه ورؤيته الكونية. ولذلك وجدنا نبي هذه الأمة ﷺ،

يخرج إلى الناس في كل مكان ليبين لهم الإسلام وحقائقه.

ولو دققنا النظر في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وعمقنا البحث في السيرة النبوية، وسيرة الخلفاء الراشدين، وسيرة علماء الأمة في مختلف العصور، لوجدنا آثارًا ضخمة للحوار والتواصل بين الإسلام والأديان والملل والنحل والثقافات الأخرى، على مختلف اعتقاداتها ورؤاها الكونية. وخير دليل على نزعة الإسلام الحوارية والتواصلية والتفاعلية مع الآخرين، ذلك التنوع الهائل في المسلمين أنفسهم، شعوبًا وقبائل وأجناسًا، حتى أصبحت أعظم خاصية من خاصيات الحضارة الإسلامية، هي قدرتها الفاعلة على صهر مختلف الأجناس، واستيعاب تنوعها واختلافها، في إطار الإسلام وقيمه العليا. وما تنوع الثقافة الإسلامية وتنوع مشاربها وتجسداتها الكثيرة، إلا دليل آخر على تواصل الإسلام وحواره مع الآخرين. وتجدر الإشارة هنا إلى أن حوار الإسلام وتواصله، لم يكن لأغراض سياسية وقتية عابرة، أو لأغراض شخصية ذاتية، أو لحل نزاعات طارئة، ولكنه خصيصة فطرية في الإسلام ذاته.

أسس الحوار في الإسلام

الحوار أسلوب حضاري ووسيلة من وسائل التعامل في الحياة، فهو المعبّر عن سمات الشخصية الإسلامية السوية مستندة إلى مبادئ الدين الحنيف وتعاليمه السمحة، وهو بهذا المفهوم يقوم على قوائم أربعة:

١- الإيمان بالله وبكتابه

هذه القاعدة هي المنطلق الأول الذي يجب أن يتأسس عليه دافع المؤمن ورغبته في محاورة الآخرين، لأنه يسعى فيه إلى تحقيق منفعة ومصلحة للدين الذي ينتمي إليه ولأمته. والإيمان قوة وعزة يعبر عن ثقة المرء بربه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(المنافقون:٨)؛ فهو عزيز النفس، قوي الجانب، صلب الإرادة، ثابت المواقف، ولا يركن إلى الباطل ولا إلى الهوان والانهزام. وبهذا المفهوم ينظر إلى الحوار بأنه: سلاح معنوي من أسلحة السجال الديني الثقافي، ينافح به عن المصالح العليا للإسلام، ويحقق من خلاله ما لا يستطيع أن يصل إليه بالعدد المادية. وإذا رجعنا إلى فقرات السيرة النبوية، فإننا سنجد أن المنطلق الأساس الذي انبنى عليه حوار رسول الله ﷺ مع قومه، هو الإيمان وقوة العقيدة.

٢- التأدب بأخلاق الإسلام قولاً وعملاً

وذلك من خلال التأسي بسيرة النبي ﷺ وسيرة صحابته ﷺ في الحوار ومخاطبة الآخرين: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١). وإذا نظرنا إلى الحوار بأنه وسيلة من وسائل الإعلام عن الإسلام، ومن أساليبه الناجعة، فحري بأن يقترن بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(النحل:١٢٥). وفي روح المعاني يقول الألوسي: "الحكمة بالمقالة المحكمة، وهي الحجة القطعية المزيحة للشبه، والموعظة الحسنة هي الخطابات النافعة".

٣- الحرية والاختلاف

أكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة، ووجه نبيه ﷺ إلى أنه لا سبيل لحمل الناس بالقوة على وجهة واحدة في الهداية والإقناع واعتناق الدين، وإنما يجب أن يَترك المخاطبين في حرية من أمرهم في تلقي الخطاب الإلهي، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾(الزمر:٤١). وهذا في مجال العقيدة، حيث التعلق بأصول الدين وأركانه التي لا يقوم إلا بها، أما الاختلاف في الفروع، فإن الإسلام لا يبيحه فقط، وإنما يحبذه أحيانًا لما فيه من السعة على الناس واختيار الأنسب لهم.

٤- طلب الحق والبحث عنه

من القواعد التواصلية في منظومة الحوار الإسلامي الهادف، طلب الحق والسعي للوصول إليه، والتماس الصواب بمختلف الوسائل المتاحة والسبل المتيسرة التي يمكن لها أن تحقق مصالح العباد، وتؤمن مصالح الدين دون العدول والانحراف عن محجة الشرع الإسلامي الحنيف، ليبقى الحوار وسيلة وقناة يتم العبور بواسطتها نحو الحقيقة، وبشرف الغاية تشرف الوسيلة. وعليه، ينبغي ألا ننظر إلى الحوار كغاية ومقصد في

hiramagazine.com

ذاته، لما يؤدي إليه هذا النظر من المكابرة والجدال الخارج عن نطاق القيم والموضوعية، وإنما ينبغي أن ننظر إلى الحوار على أنه إحدى وسائل البلاغ عن الله تعالى وعن رسوله بعلم وأدب.

فهذه القواعد الأربع، تمثل المحاور الرئيسة التي ينبني عليها الحوار الإسلامي الصحيح وإن اختلفت طبيعة كل واحدة منها عن الأخرى في الأصل، لكنها مرتكزات أساس تتكامل فيما بينها متضامنة، لتبلور عملية الحوار حسب المنهج الإسلامي الصحيح والهادف.

فقاعدة الإيمان، هي المنطلق الأساس لعملية الحوار، ومرتكزه الأول، وقاعدتا التخلق بأخلاق الدين الإسلامي الحنيف والحرية في التفكير، هما منهجه ووسيلته. ثم تأتي قاعدة البحث عن الحقيقة والصواب، لتكوّن مضمون الحوار والمقصد الذي يهدف ويرمي إليه. ويبقى الحوار نفسه وسيلة وقناة من قنوات الإعلام برسالة الإسلام وبيانها للعالم.

وما ذكرناه من قواعد الحوار الإسلامي، كان على وجه الكلية والإجمال، وما يلاحظ اليوم من حوارات عقيمة الإنتاج، باسم الدين تارة، وباسم المجتمع تارة أخرى، ما هي إلا صور من صور الحوار المهلهل، الذي فقد أصوله العلمية والتربوية، وما لا أصل له لا قيام له، ولا يرجى إنتاجه.

وعلى العموم، يبقى المنهج الحواري السليم الذي رسم ضوابطه الدين الإسلامي، منهجًا مؤطرًا لعملية الجدل والمناظرة والمناقشة من أجل الوصول إلى الحقيقة، وهو الوسيلة الوحيدة للتبليغ والمدافعة عن الصواب. ولذلك كان الحديث عن المنهج الإسلامي في ضبط عملية المحاورة حديثًا يفيد المجال العلمي والتربوي والدعوي، وما أحوج المنظومة الدعوية إلى محاولة تجديد طرق البلاغ عن الله تعالى، بعدما شابها من ضعف في التأثير على المتلقي، وقصور في استيعاب قضايا الناس في الواقع، لفقدان حوار فاعل قائم على الموضوعية العلمية، ومؤطر بالمبادئ والقيم التربوية. ■

(*) كاتب وباحث / المغرب.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الإنسان المكرَّم

قُمامَة بين القمَامات جعلوك،
ضائعًا بين القارورات من حولك أرادوك..
بك استهانوا، ومن عَليائك أَنزلوك،
ومن تكريم الله لك أهبطوك،
وإلى أسفل سافلين أسقطوك..
ألا يخجلون، ومن فعالهم هذه يستحيون؟!

* * *

د. سليمان الدقور*

إنْ حظيتَ بمعية الروح فقد هُديْتَ وامتلكتَ بوصلة تشير إلى الدرب الصحيح.. فإذا ما انحرفتَ قليلاً، توجَّعتْ روحُك، فذُبْتَ كمدًا وندمًا، وعدْتَ إلى الدرب نفسه، واستأنفتَ المسير.

الموازين

معايير منهجية في التعامل مع الشائعات والاتهامات

لم يغفل الإسلام العظيم بيان كل ما يتعلق بالإنسان من مواقف وأحداث تقع معه... فكيف إذا كانت هذه الأحداث جسيمة، لها صلة وتعلق بمسير الإنسان وما يحمله من قيم، وما يدافع عنه من مبادئ؟ ويأتي تقرير هذا الأمر في سياق ما يصاب به الإنسان من ابتلاءات، تختبر قدراته وصدق انتمائه، وبخاصة في مسيرة قيامه بواجب الدعوة والإرشاد، وهي في حياة المسلم فرصة ليتعرف على حقيقة إيمانه وثقته بالله تعالى.

ومما يجب الوعي عليه جملة أمور:

- أن الابتلاءات سنة الله في الدعوات.
- النبي ﷺ كان قد اتهم بأكثر من تهمة في مسيرة حياته الدعوية، على المستوى الشخصي، وعلى مستوى ما تحمّله من أمانة هذا الدين.
- العلماء والدعاة اتهموا أيضًا على مرّ الزمن.
- الأخطاء أمر طبيعي عند من يعمل، فلا أحد معصوم.
- لا أحد يمتلك الحقيقة المطلقة، ليقرر أن يكون حكمًا على الآخرين.

• لا يمكن لأحد أن يتحمل الخطأ وحده، إنما هناك أسباب متداخلة قد يتحمل فيها الأطراف جميعًا مسؤولية الأخطاء، ولعل من تقبّله الله من ابني آدم قد استفز أخاه بقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾(المائدة:٢٧)، فأظهر أسوأ ما عنده.

موازين ومعايير منهجية في التعامل مع الأشخاص والآراء والمواقف والحكم عليها

لا بد من التأكيد على جملة من الموازين المنهجية التي تحقق للإنسان العدالة ووجه الحق في الحكم على المواقف والأقوال، ويمكن إجمال ذلك في نقاط مهمة أساسية:

١- التأكد؛ لنتأكد من كونها حقائق وليست مجرد شائعات أو افتراءات، وقد أكد القرآن هذه القيمة بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾(الحجرات:٦).

٢- الفهم؛ أي فهم المواقف والأقوال بعد أن تأكدنا من صحتها، من خلال وضعها في سياقاتها الصحيحة من مثل:

• سياق الكلام المباشر، والسياق الشخصي، حتى لا ينتزع الكلام انتزاعًا ويوجه إلى غير وجهته.

• سياق العمل الكلي، أي أن ننظر في فهم الأشخاص من خلال مجموع إنجازاتهم؛ فهي تعطي توضيحًا دقيقًا لكل ما يؤمنون به.

• سياق الرصيد السابق من المعرفة والثقة، فلا يصحّ فصل الإنسان عن تاريخه السابق ما دام خيرًا ولم يتبرأ منه أو يخالفه، وهكذا كان الحال مع الرسول الكريم ﷺ، إذ عُرف بأنه الصادق الأمين، وكان لذلك أثره على صدق دعوته.

٣- التحليل وليس التخمين؛ وهو أمر مرتبط بفهم الأقوال والمواقف، للوقوف على أسبابها ومحاولة تفسيرها دون التوقعات أو التخرصات.

٤- التماس العذر من الشخص في أي موقف يمكن أن يقع فيه خطأ، وعدم التجريح أو الإساءة.

٥- البعد عن الدخول في النوايا والمقاصد التي تؤدي إلى الاتهامات.

٦- البعد عن التعميم في الأحكام.

قراءة في حادثة الإفك ومنهج مواجهة الاتهامات والتشكيكات

كلنا نقرأ خبر حادثة الإفك كما يصورها لنا القرآن الكريم، حيث تجاوز فيها الأشخاص ليقف معنا فيها، من خلال الحديث عنها كظاهرة يمكن أن تكون في أي مجتمع، وأن يتعرض لها أي إنسان في حياته.

والقرآن الكريم يبين لنا أن مثل هذه المواقف لصعوبتها، فإنها تمس مكونات المجتمع جميعه حتى ولو كانت على مستوى فرد من أفراده؛ إلا أنها تتصل بالمكون الاجتماعي والأخلاقي والسلوكي لهذا المجتمع... فكيف إذا كانت تتعلق أحيانًا بأفراد لهم دورهم ومكانتهم في المجتمع؟

انقسام مجتمع المدينة بسبب الحادثة إلى فئات

١- المتهم "محمد ﷺ وعائشة ﵂"؛ أي المشروع وليس الأشخاص، ولا يملك ليدافع عن نفسه إلا رصيد أقواله وأعماله وثقة إخوانه الذين يعرفونه بهذه الأقوال والأعمال.

٢- الذين صنعوا الشائعة وأثاروها، هم "المنافقون"، ولكل حق أعداؤه الذين يتصيدون ويحقدون ويبالغون ويكذبون ويشوهون.

٣- الذين يرددونها؛ وهم عامة الناس ممن لم يُفعّلوا المنهج الحق المنضبط في التعامل مع مثل هذه المواقف. وهؤلاء ليس لهم رصيد من الوعي الكامل أو الثقة، أو أنهم لم يفعّلوا هذا الرصيد، أو أنهم لم يحسبوا حسابًا لخطورة مواقفهم، وهم في الغالب "سذج بسطاء"، وأسراء الانطباع الأول، ومثلهم في مجتمع المدينة الصحابة الكرام "مسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت" رضي الله عنهما وعن الصحابة أجمعين.

٤- المترددون الحائرون -وهم كثير- ومواقفهم سلبية لم يحددوا وجهتهم بعد، يكونون متفرجين لم يتخذوا موقفًا، وموقفهم هذا بحد ذاته هو خذلان للحق وأصحابه.

٥- المدافعون الذين تملأ الثقة قلوبهم، ويقفون على رصيد عال من الوعي والمنهج القويم في التعامل

hiramagazine.com

مع هذه المواقف، ويحسون بالمسؤولية تجاه ما يؤمنون به ويثقون به، هؤلاء هم الأبطال الشجعان الواثقون؛ ونموذجهم أبو أيوب الأنصاري وزوجته رضي الله عنهما.

كيف كان موقف النبي ﷺ؛ القائد الحكيم الملهم؟

تجاه هذه الأحداث وصعوبتها وتعقيدها، كان أمامه عدة حلول:

١- الطلاق والانفصال؛ ويمثل فكرة التخلي عن اختياراتك ومواقفك وحتى قناعاتك ورصيد إنجازاتك.

٢- المدافعة بنفسه عن نفسه ومشروعه وبيته، ولكن هل يستطيع ذلك وحده في ظل هذه الهجمة المستعرة الملتهبة؟

٣- أن يترك الموضوع ويهمله، ليتكفل الزمن وحده بالحل.

٤- أن يشارك المجتمع معه ويضعهم أمام مسؤولياتهم تجاه مشروعهم ومستقبلهم.

وقد اختار ﷺ الرابعة؛ فذهب يتكلم مع "أم أيمن" وهي جاريته، ثم زينب بنت جحش زوجته، ثم توجه للشباب أمثال أسامة بن زيد، وعلي بن أبي طالب ﷺ، ثم توجه إلى من لهم تأثير فيمن حولهم، ومن كان لرأيه أثر كبير في دعم النبي ﷺ ومساندته، وفي تغيير مجريات الأمور؛ ذهب إلى عمر بن الخطاب الفاروق ﷺ... فقال له عمر: من زوجك إياها؟ فقال: "الله"، فقال أيدلس عليك الله؟

فكأن النبي ﷺ كان ينتظر هذه الكلمات ومن ينشرها، فقال لعمر ﷺ: "قل لهم يا عمر، قل لهم يا عمر"، ويشير ذلك إلى أهمية "المدافعة الإعلامية".

كيف ستكون النتيجة؟

في ضوء الخيارات السابقة والموقف الذي اختاره الرسول ﷺ، يمكننا تأكيد أهم القضايا الأساسية التالية:

١- يجب أن نأخذ بالأسباب مع كامل التوكل على الله والثقة بقدره، ولذلك جاءت التبرئة للمتهم من الله تعالى. فإن كنت مؤمنًا صادقًا مع الله، فالله يدافع عنك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾(الحج:٣٨).

٢- إنّ المسلم الصادق المؤمن بربه، الواثق بقدره، يتجاوز مثل هذه المواقف برصيد المحبة والأخوة حتى لمن أساء إليه. فبعد ظهور الحقّ، لا يقبل لك أن تمتنع عن الإنفاق على إخوانك المخطئين، وعليك أن تسامحهم وأن لا تحقد عليهم.

إن المسلم الصادق المؤمن بربه، الواثق بقدره، يتجاوز مثل مواقف الفتن برصيد المحبة والأخوة حتى لمن أساء إليه. فبعد ظهور الحق، لا يقبل لك أن تمتنع عن الإنفاق على إخوانك المخطئين، وعليك أن تسامحهم وأن لا تحقد عليهم.

ويؤكد الأستاذ فتح الله كولن موقفه في الخدمة مع إخوانه -على الرغم من كل الإساءات والاتهامات- على جملة من المفاهيم الإيمانية، منها:

١- ضرورة التماسك والثبات على ذات القيم، لأنها قيم قرآنية ثابتة، يقول:

"نحن اليوم في المكان نفسه الذي وقفنا فيه بالأمس، أما من بدل مكانه فهو من يجب النظر إليه".

٢- وجوب الإخلاص لله تعالى وضرورة التواضع في تقديم الخدمة للناس، وهو يرفض ربط الناس بنفسه، ويؤكد الالتفاف حول القيم ذاتها، يقول: "حاولت أن أكون عبدًا".

٣- الدعوة للثقة والروح الإيجابية في مثل هذه المواقف، ليسهل استشراف المستقبل، والسير على خط الأنبياء ﷺ. يوضح ذلك من خلال قول الله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(يوسف:١٨) فيقول: "لا بد لهذه الكربة أن تزول كما زالت شقيقاتها الأخرى".

٤- السعي للهمة العالية، والحرص على صدق الهمة، يقول: "سنواصل الخدمة قدمًا، إكرامًا لأمتنا وإكرامًا للإنسانية".

٥- ضرورة التضحية، لنختبر صدقنا وعزمنا، يقول في هذا المعنى: "لو علمت أن موتي سيكون حلاً لمشاكل تركيا، لاخترت أن أموت في اليوم ألف مرة".

ويقول: "ولكي لا أعطي مبررًا لمن يريد أن يغتال أمن تركيا وسلامتها واستقرارها، فسأدفن أشواقي في أعماق قلبي، وأبقى هنا مزيدًا من الوقت".

hiramagazine.com

الأستاذ كولن يعكس الفهم القرآني في واقع حياته، مستفيدًا من كل هذه التوجيهات القرآنية الدقيقة، ومستفيدًا من هذا الرصيد القرآني فيما ذكره لنا من نماذج عن الأنبياء ﷺ وعن رسولنا الكريم ﷺ. كما يقدم الأستاذ كولن توصيات أساسية ومنهجية ليحافظ فيها المسلم على قيمه، ولكي لا يهتز في مواقف الابتلاءات والاتهامات.

وهو يمثل تحديدًا دقيقًا لما يجب في هذه المرحلة والمرحلة القادمة، وذلك بالاستعداد لكل ألوان المحن، بحيث لا يحق لنا الشكوى أو التذمر. ويذكر لذلك ثلاثة أمور أساسية:

• استحضار الغاية، وهي عندنا "أن نتحرى مرضاة الله تعالى".

• حضور الهدف، ويكون بـ"خدمة القيم الإنسانية السامية، وغرسها في القلوب من منظور إيماني".

• التفاعل بخطوات عملية لتحقيق ذلك، وتتمثل فيما يلي:

١- الصمود والصبر والتوكل.

٢- التعامل بأخلاقنا وقيمنا.

٣- الثبات مكاننا.

٤- المواصلة في خدمتنا.

٥- الزيادة في سرعتنا.

٦- عدم التفكير بردة فعل على ما يجري.

٧- عدم اليأس أو فقد الثقة والأمل.

٨- البحث عن طرق وفرص جديدة ومتعددة للنجاح.

٩- أن نتحرى مرضاة الله.

١٠- العفو عن الآخرين ومسامحتهم.

وبهذا تتحقق لنا النتائج الآتية:

١- الفوز الحقيقي وهو كسب مرضاة الله.

٢- انتصار العقل السليم والمنهج القويم.

٣- مجيء الآخرين نادمين معتذرين.

يقول الأستاذ: "حينها، عليكم أن تعفوا وتقولوا لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾(يوسف:٩٢). ■

(*) رئيس قسم أصول الدين في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية / الأردن.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

برعوم البراءة

يا مسكوب اللطف،
يا رحيق الرحمة،
يا بريئًا بين مذنبين.
أنت إلى الله قريب،
فإذا شَمَمْناك فعبيرَ الماوراء نَشُمّ،
وإذا ضممناك فطُهرَ الوجود نضمّ،
فنحن سجناء أوزارنا، ومكبَّلو أوهامنا.
وأنتَ بالحرّية تنعم،
لا قيد يقيدك ولا وِزْر يثقلك.

* * *

د. محمد إقبال عروي*

إلى الأبدية كان نزوعنا، بها نفكر، وعنها نفتش.. فطال علينا الأمد وقست قلوبنا.. فأُفرِغ هذا الحب من مضمونه، وتحول إلى شكل فارغ، وتصوفٍ بلا احتراق قلب أو لهب روح.. وغابت عنا شمس الوحي، وأضواء الحق، فغشينا الضباب، وتعكرت دنيانا، وزادت ظلمتها.

الموازين

الجمالية السليمانية

أو إعمال الجمال أولى من إهماله

ليس من مبالغات القول إن "الإنسان كائن جمالي"، ودليل ذلك أنه ميال -فطريًّا- إلى الشعور بالجمال وتذوقه وممارسته، ويكفي دليلاً على ذلك ملاحظة أن القرآن الكريم اشتمل على ثلاثة أبعاد في التعامل مع الجمال؛ تمثل **البعد الأول** في أن لغة القرآن وبيانه مثلتا القيم الكبرى للجمالية الفنية، قيمًا سحرت ألباب العرب وغيرهم، ونشأت -لأجلها- علوم وفنون لإبراز تلك القيم وتحديد عناصرها الجمالية ووظائفها الفنية.

وإن القمم العالية للبيان القرآني، لتعد أحد المداخل الأساسية التي ولج منها الإنسان العربي عند نزول الوحي، ليتزود من جمال القرآن في مبانيه ومعانيه وأساليبه، يقول الدكتور مصطفى بن حمزة: "وأحسب أن ملاحظة الجمال قد كانت أكبر المداخل وأوسعه إلى الإسلام منذ أن أعلن الرسول ﷺ دعوته في الناس، وقد كان في قمة الجمال بيان القرآن الكريم الآسر الذي لم يتمالك العرب إذ سمعوه أن أعلنوا انصياعهم له، إذ كانت الكلمة الواحدة تأخذ بمجامع القلوب؛ فقد سمع الأعرابي قول الله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾(الحجر:٩٤)، فذهب به الفكر كل مذهب في استحضار جوانب الروعة في فعل "اصدع"، فلم يتمالك أن سجد، فقيل: لِم سجدتَ؟ قال: سجدت لجماله".

أما البعد الثاني، فيظهر في أن مضامين القرآن الكريم وتوجيهاته، لفتت نظر "هذا الإنسان" إلى الجمال الذي

إذا كان من مهمات علماء الأمة وفقهائها، السعي إلى حسن تنزيل أحكام القرآن على الواقع، فإن المطلوب اليوم، أن يسعوا إلى حسن تنزيل التوجيهات الجمالية والفنية القرآنية في ذلك الواقع، وأن يجعلوا من ضمن قواعدهم الأصولية والفقهية، ما له تعلق بوجوب تنزيل التمثل الجمالي القرآني في مناشط حياة الناس الذوقية والجمالية.

حراء

يبدأ من أعماق داخله، ويمتد إلى مختلف العناصر الطبيعية التي تحيط به في عالم النبات والجماد والحيوان، وفي محيطه الأرضي وملكوت السموات.

والاستقراء هاد إلى تبين هذا الملحظ في الخطاب القرآني، منها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤)، ومنها: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾(النمل:٦٠)، ومنها: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾(النحل:٥-٨)، ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾(الملك:٥)، و﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافات:٦)، و﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾(الأنعام:٩٩)، و﴿وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾(النور:٣١).

وقد لخص الدكتور عماد الدين خليل هذين البعدين في قوله: "إن التعامل القرآني مع الجمال يأخذ اتجاهين؛ فأما أولهما فيقوم على المضامين الجمالية التي يطرحها كتاب الله، بدءًا من حديثه عن خلق الكون والعالم والطبيعة والحياة والخلائق والإنسان، مرورًا بلفت الأنظار والسماع إلى حشود الجماليات التي تنتشر في أمداء السموات والأرض، وانتهاء بالتأكيد على الجمال والزينة كعناصر ضرورية متممة، لتجربة الحياة المؤمنة المستقيمة. وأما الاتجاه الثاني فيقوم على الأسلوب، وقد قيل في معجزة القرآن (الأسلوبية) الكثير".

أما البعد الثالث، فيتجلى في أن من توجيهات القرآن وآدابه، ما يتعلق بتجميل الحياة والحرص على التمتع بزينتها وبهجتها؛ استرواحًا بها، وإظهارًا للحمد والشكر المتوجب من الإنسان إلى الله المنعم بفيوضاتها التي لا تعد ولا تحصى. ويظهر هذا البعد في التوجيهات القرآنية التي تمثل قواعد حاكمة في هذا الميدان، من مثل قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾(الأعراف:٣١)، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾(الأعراف:٣٢).

القادح الجمالي في الفطرة الإنسانية

بل يمكن للدارس أن يذهب إلى أبعد من ذلك، فيلمح أن السياق القرآني، لفت إلى ما يمكن تسميته بـ"القادح الجمالي" في المحيط الإنساني؛ ذلك القادح الذي أنار بداخل الإنسان المسلم، القدرة على تمثل الجمال في سياق وصف القرآن لمعجزة إنزال الماء وإنبات النجم والشجر والزهر، وتحويله إلى واقع معيش عبر تجميل المنزل والمدينة والفضاء العام بمختلف أنواع الحدائق والبساتين، يقول الدكتور يحيى وزيري: "إن وجود الحدائق بالمساكن والمباني الخاصة، أو وجود المناطق الخضراء بالمدن، اتجاه حضاري وجمالي نبه إليه القرآن الكريم في العديد من آياته، حيث يقول ﷻ: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾(النمل:٦٠).

من هذا المنطلق، يجب ألا ينظر إلى محاولات إنبات الحدائق على أنها رفاهية، بل هي إحدى نعم الله على البشر، ويتأكد ذلك من قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، ومن هنا تتأكد الدعوة الصريحة لإيجاد الحدائق التي تدخل تحت كلمتي "الزينة" و"الطيبات" اللتين وردتا في الآية السابقة".

والمتأمل في الأبعاد المذكورة آنفًا، يهتدي إلى أن القرآن الكريم كان يؤسس في الوسط العربي والإنساني، أبجديات ثقافة الانتفاع الجمالي بعد أن أحكم الإنسان ثقافة الانتفاع المادي والخدماتي بمفردات الكون، وصارت محددًا من محددات العلاقة التي تحكمه بمحيطه.

وإذا كان الانتفاع المعرفي العلمي وسيلة الإنسان

hiramagazine.com

للانتفاع المادي والخدماتي من عناصر الكون المختلفة، فإن الانتفاع الجمالي وسيلته إلى الارتقاء الروحي، وهذا ما يفسر عناية القرآن الكريم بهذا الجانب.

وقد استطاع الإنسان، باهتدائه بهدي القرآن، أن يستوعب هذه الأبعاد، فصارت له معيارًا يتذوق به الجمال، كما أضحت له فلسفة تتفجر من خلالها إبداعاته الفنية في الشعر والقصص والحكمة والخط والزخرفة والعمارة والتصوير وغيرها من الفنون.

ويمكن القول إن الحضارة الإسلامية، في كسبها الإبداعي الفني، تمثلت هذه الروح، وانطلقت ببذورها لتتلاقح مع الكسب الإنساني المنتمي إلى حضارات أخرى وفق حركية "التعارفية الحضارية" التي جعلها القرآن الكريم علة وسببًا في تكوُّن الشعوب والقبائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(الحجرات:١٣).

وإذا كان من مهمات علماء الأمة وفقهائها، السعي إلى حسن تنزيل أحكام القرآن على الواقع -أفرادًا وأسرًا ومجتمعات ومؤسسات- فإن المطلوب اليوم، أن يسعوا إلى حسن تنزيل التوجيهات الجمالية والفنية القرآنية في ذلك الواقع، وأن يجعلوا من ضمن قواعدهم الأصولية والفقهية، ما له تعلق بوجوب تنزيل التمثل الجمالي القرآني في مناشط حياة الناس الذوقية والجمالية.

الجمالية السليمانية في القرآن الكريم

لم يقتصر القرآن على تحريك وجدان الإنسان نحو تلك الأبعاد الجمالية الثلاثة، وإنما استثمر القصص القرآني لترسيخ القيم الجمالية وتأكيد أهميتها في حياة الناس. وقد اقتطفت من حديقة القرآن ثلاثة مشاهد كلها تتصل بشخصية سليمان عليه السلام، ومع اختلاف سياقاتها، إلا أنها تشكل جميعها لوحة دالة على الإحساس الجمالي وتذوقه وتمثله لدى نبي الله سليمان عليه السلام، وكيف لا، وهو الذي ينتمي إلى بيئة جمالية جلالية، بيئة داوود عليه السلام الذي قال عنه القرآن: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۞ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(سبأ:١٠-١١).

إن السياق القرآني، لفت إلى ما يمكن تسميته بـ"القادح الجمالي" في المحيط الإنساني؛ ذلك القادح الذي أنار بداخل الإنسان المسلم، القدرة على تمثل الجمال في سياق وصف القرآن لمعجزة إنزال الماء وإنبات النجم والشجر والزهر، وتحويله إلى واقع معيش عبر تجميل المنزل والمدينة والفضاء العام بمختلف أنواع الحدائق والبساتين.

حراء

المشهد الأول

يقول الحق ﷻ عن سليمان عليه السلام: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۞ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(سبأ:١٢-١٣)؛ في هذه الآيات الكريمة التفات إلى جوانب من العمران الجمالي والوظيفي في عهد سليمان عليه السلام، انخرط في رفع قواعده نفر من الجن بناء على رؤى تخطيطية وتوجيهات دقيقة -ما يشاء- من هذا النبي الكريم.

وقد وقف المفسرون على معاني تلك المكونات المعمارية والعمرانية، غير أنهم تعاملوا معها وفق رؤية فقهية لم تتح لهم فرصة السؤال عن بعض الأسرار الكامنة خلف توجيهات سليمان عليه السلام للجن على أن يشيدوا له تلك المآثر العمرانية. يقول السخاوي، مثلاً: "المحاريب: المساكن والمنازل الشريفة، وقيل هي المساجد. والتماثيل: الصور من الملائكة والنبيين والصالحين، كان يعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوها. وإنما أمر سليمان عليه السلام بعمل الصور -وهي حرام في شرعنا- لأنه كان مباحًا في شرعهم، ويجوز أن يراد أنهم كانوا يعملون تماثيل الأشجار وما لا روح فيه".

ومع أن الآيات المذكورة ليست بصدد التحليل أو التحريم، وإنما سيقت لمقصدية الإشادة بملك سليمان عليه السلام وازدهار العمران المساوق للصلاح في عصره. فقد ظل الخطاب التفسيري ينطلق من هذه الرؤية الفقهية إلى عصرنا الحديث، وهذا ما يلمسه الدارس في قول

hiramagazine.com

الإمام الطاهر بن عاشور: "ولم تكن التماثيل المجسمة محرمة الاستعمال في الشرائع السابقة، وقد حرمها الإسلام؛ لأن الإسلام أمعن في قطع دابر الإشراك لشدة تمكن الإشراك من نفوس العرب وغيرهم، وكان معظم الأصنام تماثيل، فحرم الإسلام اتخاذها لذلك، ولم يكن تحريمها لأجل اشتمالها على مفسدة في ذاتها، ولكن لكونها كانت ذريعة للإشراك.

واتفق الفقهاء على تحريم اتخاذ ما له ظل من تماثيل ذوات الروح، إذا كانت مستكملة الأعضاء التي لا يعيش ذو الروح بدونها، وعلى كراهة ما عدا ذلك مثل التماثيل المنصفة، ومثل الصور التي على الجدران وعلى الأوراق والرقم في الثوب ولا ما يجلس عليه ويداس، وحكم صنعها يتبع اتخاذها، ووقعت الرخصة في اتخاذ صور تلعب بها البنات لفائدة اعتيادهن بأمور البيت".

وهي استنباطات جليلة في بنيتها الفقهية، لكنها تقيم حجبًا بين يدي تدبر الآيات وتذوق معانيها في سياق امتداح القرآن لنبيه سليمان عليه السلام، الذي استطاع الجمع والتوفيق بين الملك والصلاح والعمران والجمال. وهي مكونات شهدت -وما تزال- تنافرًا وتعارضًا واختلالاً في العديد من التجارب التاريخية والمعاصرة.

ولعل أخطر ما في نص السخاوي قوله: "والتماثيل: الصور من الملائكة والنبيين والصالحين، كان يعمل في المساجد من نحاس وصفر وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوها"، ووجه الخطورة؛ أنه يعلل صناعة تلك التماثيل باتخاذها معبودات، وهذا لا ينسجم مع الطبيعة التوحيدية للأنبياء، ويفرغ معنى الابتلاء والامتحان من محتواه القرآني، إلى موقف ترصدي للإيقاع بالناس في شرك الشرك والانحراف العقدي، بل وينافي السياق النصي للآية وسياق السورة والسياق المقاصدي للقرآن الكريم.

وأما منافاته للسياق النصي للآية، فلا يستقيم اعتبار تلك الأعمال مما يستدعي شكر الله عليها، إذ الشكر يكون على حميد الأفعال، وما دام عبادة الأصنام من دون الله عملاً مشينًا، فهو غير داخل في صنف الأعمال الحميدة، وغير مطلوب فيه شكر الله. وأما منافاته لسياق السورة، فقد ورد في سورة سبأ آيات عديدة تضعف التعليل الذي ذهب إليه الإمام السخاوي، وتنفي أن يسمح سليمان عليه السلام لنفسه بأن يأمر الجن بصناعة التماثيل ليعبدها الناس اختبارًا لهم وابتلاء. فقد ورد في تلك السورة قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾(سبأ:٢٢)، فالزعم كائن من المشركين وليس من الأنبياء. وورد في السورة قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(سبأ:٢٧)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾(سبأ:٣٣)، وهو قول منصف من قبل المستضعفين، يكشف حين تنزيله على حال سليمان عليه السلام أنه لا يستبعد -في ظل تفسير الإمام السخاوي- أن يقوم من مملكة سليمان عليه السلام نفر من الناس يحتجون عليه بأنه كان سببًا في الشرك لأنه أمر الجن بصناعة التماثيل للعبادة.

وكيف يجوز للإمام السخاوي قول ذلك وهو يتلو في سورة سبأ نفسها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ أَهَؤُلاَءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾(سبأ:٤٠-٤١).

وإذا انتفى ما يذهب إليه بعض المفسرين في توجيه تلك الآيات، لم يبق -إذن- إلا القول بمقصدية الجمال في صناعة سليمان عليه السلام للتماثيل. وكنا نأمل من الخطاب التفسيري أن يتوسع في تحديد ملامح تلك المقصدية وأبعادها، ويبرز كيف أن سليمان عليه السلام -الذي آمن بالجمال وتمثله وجعله سلوكًا يوميًّا- يرى بحسه الجمالي وتربيته الذوقية، أن تتزين الفضاءات بجمال التماثيل والمحاريب والجفان.

وفي المقال القادم محاورة لبقية المشاهد التي تؤكد مفهوم "الجمالية السليمانية" إن شاء الله. ■

(*) مستشار بوزراة الأوقاف الكويتية / المغرب.

hiramagazine.com

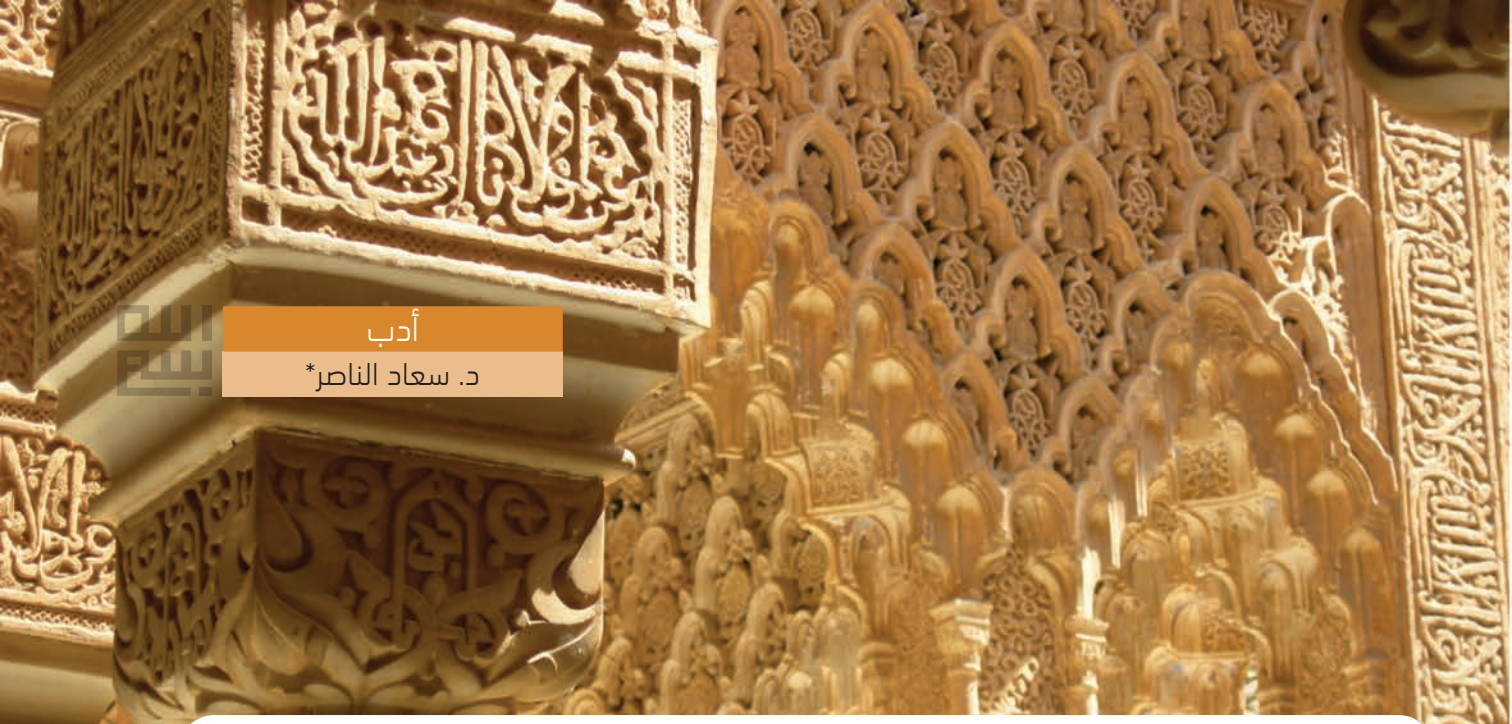

أدب

د. سعاد الناصر*

روح الأندلس

يتجلى طيف أندلس في المدائن، ينسكب دمعها في المآقي، يبعث الومضات ومضة تلو الأخرى عسى فارس يلتقط الإشارة. تنتقل بين الشطآن والخلجان تنثر عصافير من روحها، وتعزف إيقاعات في لون قوسِ قزح، تستنهض حضورًا بهيًّا، يختزل الزمن إلى معنىً في رحابة الكون وعمق الهدى.

قيل إنه قمر يغازل بنفسج الحروف، وقيل إنه البحر يسكّن هدير الصمت ورعشة الصخب، وقيل إنه لهيب غربة مارقة من أعراف القبيلة.

وقالت: إنه السندباد يزفّ لأندلسية الحلْم نوارس اليقين؛ تتسلل أشعّة وصله إلى عمق الروح، تزرع ظلالاً بنفسجية، تعيد للزمن الأخرس بهجته، تحتضن أبجدياتي المبعثرة، تعيد تشكيل أزهارها لونًا فلونًا، ويخبّئ في أحضاني رياحين الوجد والسؤال.

ويأتي السندباد من عبق تسبيح الأرواح في ملكوت النور، فقد آن للمولود أن يرى النور بعد أن ظل يزلزل الجوى طيلة عقود من الزمن، وآن لخبث الواقع الذي يتخلق شائهًا يومًا بعد يوم أن يتطهر في شلالات الوحي وأنهار الحبيب ﷺ.

ويقول لأندلس: "تكبرين في أعماق الروح دهرًا فدهرًا، فاكتبيني أحرفًا نورانية التشكيل، وامنحيني تأشيرة الإبحار في خضرة المعلوم. أنا قبّرة ليس يأويها سوى غصنِ ظلّك الظليل، أنا قطر الندى موطنه وجنتا زهرك العليل".

وتقول أندلس: "إني آنست وجدًا يشتعل في الروح فكتبتكَ نبضًا يركض في بساتين الآتي، يشتّت أوصال الزمن العسير، ويهب للقلب نخيل إيمان. وأكتبك كل فجر في محاريبي الشاردة عساها تزهر بمفاتن اليقين، وتدخلها بسلام وأمان. وأصير غيمة تسرح في فضاءاتك، جناحًا يحتوي دفء صلاتك.. وأحبك.

أحبك نَورسًا يعبر أمواج العمر، يعانق بياض الروح، يرشف دموع صمت وشوق تساقطت فوق جمار النسيان حتى يتفصد كَوني عشقًا.

فإلى أي مدى تتوغل أندلس فيك، وتغدو أُمّة تنتفض بك... فإذا الأرض سكينة وسلام، وإذا النفوس آمنة مطمئنة، وإذا الحب يوغل حتى يصير في عمق الآذان، والأرواح تعد أن تظل في عنفوان التئامها تحذّر الانزلاق جهة التشظي، ولا ترضى إلا بالإقبال على السموّ والصفاء. ■

(*) جامعة عبد المالك السعدي، تطوان / المغرب.

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل
شهرين عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye
HİRA DERGİSİ
İlim Düşünce ve Kültür Dergisi

صاحب الامتياز
فكرت يشار

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان

مدير التحرير
أجير أشيوك

المخرج الفني
مراد عرباجي

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad.
No:1 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Phone: +902165221144
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
دار النيل للطباعة والنشر
٢٢ ج- جنوب الأكاديمية - التسعين الشمالي - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة
تليفون وفاكس: 5-20226134402+
الهاتف الجوال : 201000780841+
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
2 Aylık-Arapça-Yaygın-Süreli,
İlmi, Kültürel

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir - Türkiye
Tel:+90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ في ما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدًا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- للمجلة حق نشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون إذن من كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال على رغبته في النشر في المجلة المطبوعة. علمًا بأن ما ينشر في الموقع إلكترونيًّا لا يترتب عليه مكافأة مالية.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء - اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

SUDAN
مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أركويت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

JORDAN
دار المأمون للنشر والتوزيع، العبدلي، عمارة جوهرة القدس
رقم: 182، مدخل البنك العربي، عمان/الأردن.
Phone: +962 0790316072 / +962 0787581782
hiramagazinejordan@gmail.com

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

SYRIA
GSM: +963 955 411 990

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210
Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966507570864
hirasaudia@gmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT
٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد - الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

LİBYA
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤-طرابلس-ليبيا.
هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

كتاب جديد للأستاذ فتح الله كولن حول رؤيته لبعض القضايا المتعلقة بالإنسان،
والمجتمع، والإصلاح، والتغيير، والبناء الحضاري.

دار النيل : ٢٢ جـ- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر
تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+
daralnile@daralnile.com
www.daralnile.com

تركيا: ٧,٥ ليرة • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولارات • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا

أفراس يتيمة

أفراس بلا فرسان، كسفينة بلا ربَّان،

لا الأفراس تجد لها قائدًا،

ولا الأرض تجد لها حاميًا وذائدًا..

صِحابَ غربة أصبحنا، وغرباءَ وطن غدونا،

والظالم من فرط ظلمه نشوان،

والمظلوم من فرط ألمه تائهٌ حيران.

* * *

ISSN 1306-1879
9 771306 187009 49
www.hiramagazine.com
Temmuz - Ağustos 2015 Sayı: 49 Fiyatı: 7,5 TL.